إســم للأجرة

قصة :

نورهان عزت

(لمعة زمرد)

مدخل ..

يحدث. ..

يحدث ان يحولني قلمي خلسة الى رجل ! ، ان يجبرني على بطاقة هوية لا تعنيني فقط لانني انثى لا ترضى ان تعيش عمرا واحدا !

يحدث ان اتقمص دورا ليس لي كنت اتمناه في صغري ، حتى فكرة مراقبته من بعيد الآن لم تعد ممكنة !

يحدث ان اكون (محمد) في نص ما ، عامل بسيط في احدى شوارع العاصمة ، يتلقى الاهانات من الجميع فقط لكونه يعمل دهان للارصفة. . وهو يحمل بكالوريوس علوم سياسية بامتياز مع مرتبة الشرف في بلاده ! ، لكنها ورقة لا تحمل له الا معدة خاوية واسم منسي. ..فجعل سياسته ترك السياسة !

يحدث أن اصبح ذات غضب ذاك الفتى المراهق الطائش ، نقم على الحياة فانتقم من نفسه ! ، اختار الرفاق من ابعد طريق موصل لبيته ، قرر ان يعيش عدة ايام يتوسد الطرقات ويرسمها بخطواته. .. ، لانه غاضب قرر ان ينتقم بشجاعة .. فهرب ! !

يحدث ان اصير قاربا في ميناء ، مجاديفي مكسورة ، واحلامي بالابحار مهجورة ، اتمنى لو ان طفلا عابثا يفك حبلي البالي. .. فاضيع مع الموج. ..عبث ما يشفق على حالي !

يحدث ان اكون وردة ذابلة في مزهرية على طرف مكتب ، مات صاحبها على كف انتظار ، ضمت اصابع الوقت وثاقها عليه ، تسقط تفاصيل عمره وهو يرسم بالغياب تفاصيلها. ..فذبلت ملامحه. ..ونساني !

يحدث ان اصبح حين انكسار تلك الجدة المنسية. .

حملت استفهامات الحياة على عاتقها فانحنى !

تخبئ دموعها في كفيها وبين تجاعيد ألمها. .

في احد دفاترها القديمة تخبئ صورة لها عندما كانت انثاه الجميلة. ..

شابت وهي تحترق بعمرها من أجلهم. ..

حين قرروا ان يعيشوا لأول مرة جعلوها خارج النطاق. .. وبعيدا عن حدود ما يطاق !

يحدث ان اعود لي فلا اعرفني. ...

فارحلُ مجددا لابحث عما تبقى من الاسم ذاته. ..مني في شيء ما. ..

قصة نزفت ملامحها على الورق ، فطعنتها خيبة الضياع. ..

عالقة في حنجرة الصراع. .!

.. كل حكاية ترتسم بشيء منا

وانا وحدي .. حكاية بلا وجه !!

نورهان عزت

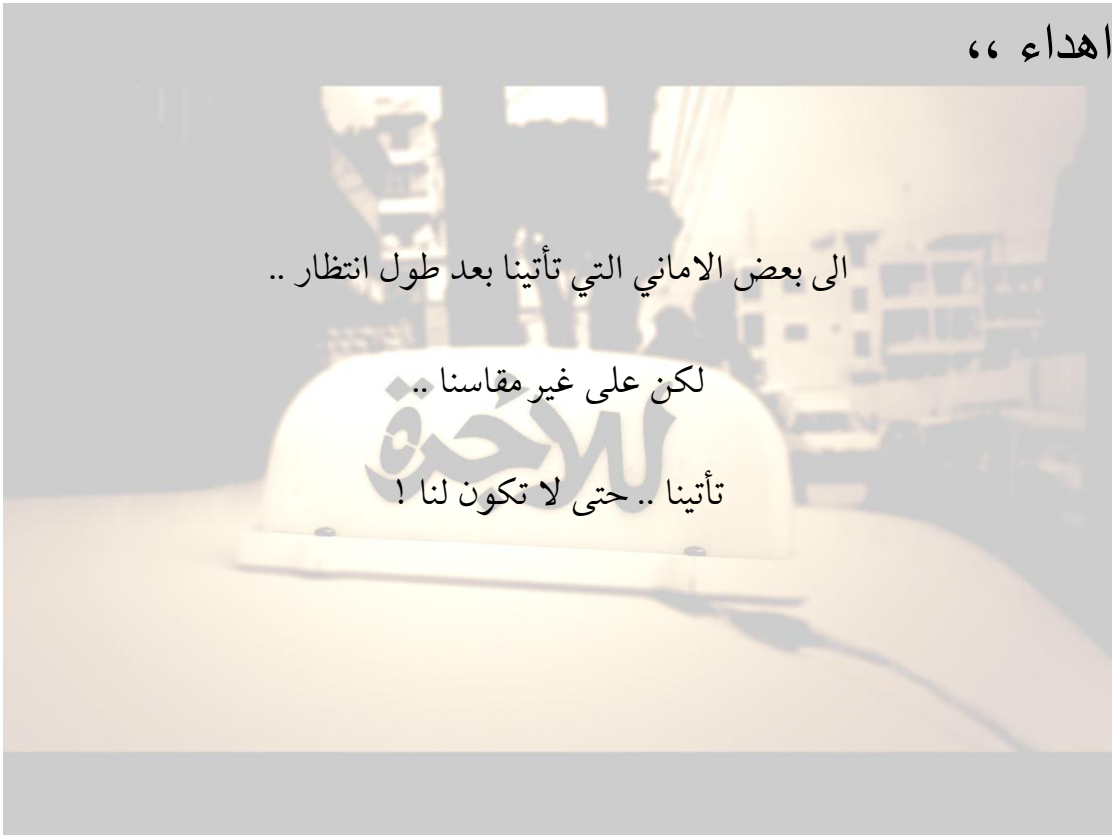

اهداء ،،

الى بعض الاماني التي تأتينا بعد طول انتظار ..

لكن على غير مقاسنا ..

تأتينا .. حتى لا تكون لنا !

https://www.facebook.com/lam3at.zomorod
https://twitter.com/lam3atzomorod

"احم احم .. تس تس ..أصوتي واضح؟! .. حسناً .. مرحبا بكم جميعا أيها الحضور الكرام ، وسعيد جدا أن اراكم هنا وأن تُتاح لي فرصة الحديث اليكم ، أغلبكم لا يعرفني وحتى ربما لم يصادف اسمي في جريدة من قبل ، وملامحي السمراء الحادة لم تقابلكم ذات مرة على فطوركم وانتم تضعون الصحيفة كمفرش ..!

لا بأس ..ستعرفون من أنا في نهاية حديثي ، وأيقنوا ان ما أتى بكم الى هنا هو ما أتى بي كذلك ، لكن قبلها أريد أن احكي لكم حكاية صغيرة ، لا أريد ان تشعروا بغرابة مضمونها .. لكن ان تشعروا بقلب الانسان المقيد في خيوطها ، قلبه المنحني لوطأة الحياة التي أرغمته على ان يسلك مساراً غير الذي اراد ، لكنه لم ينكسر ، فقط كل ما كان يشعر به كل مساء هو إحساس الضعيف حين يتمنّى يد مسن ان تربت على رأسه ويبكي ، تستطيعون ان تتوجهوا الى الخارج لتناول كأس قهوة او النوم قليلا ان لم ترق لكم حكايتي ، لان صاحبنا هذا على أي حال قد مات اسمه الان بين الاوراق ، ولن

يعنيه كثيراً ان تتوارث الألسنة قصته ، لكن على الاقل ربما ان سمعتموها قد تجدون ما يستحق ان تَدُسُّوه في مذكراتكم حول هذا المؤتمر الذي تحضرونه كل عام دون جدوى تُذكر !

مصممون على المكوث ؟!... طيب ...

أتعلمون .. يزيد البكاء تألقًا حين يكون بجانب من نحب ، من يُخبرنا أنه بالقرب لأجلنا ، يملأ تفاصيل جيوبنا حين يودعنا بأمل بأن ثمة قادما أجمل ،يُخبئ دموعنا في بين كفيه وكأنها لم تكن !، لكن صديقنا هذا ما كان له من أحد ليُشاركه هذا الدور ، وما كان له حتى حق أن يبكي وهو بين الناس ليل نهار ، كان سائق أجرة ، لا تسعه المسافات بين كل راكب وآخر ان يتنهد بوجعه ، فأقساطه تلاحقه ، وأخواته يحتجن لكل مبلغ مهما كان صغيرا حتى لا يشعرن بألم العوز والفقر ..

" على جنب يا أسطه " " تاكس تاكس " على حسب جنسية الواقف او حتى رفعة يد خفيفة تشير اليه بالوقوف.. هذا فقط ما كان يتكرر كل يوم بلا توقف وطريق طويل لا ينتهي ، كان يتمنى أن يكون الحزن في قلبه صاحب ذوق ويستدير بعيدا عن دربه ، لكنه كان كالاشارة التي تجبره على الوقوف كلما كان الطريق سالكا و فارغا ..!

اه صحيح .. مكتوب في بطاقته انه يُدعى قيس ، لكن جميع زبائنه لا يعرفونه الا محمد ..

او بالاحرى هم من يختارون له الاسم مسبقا وكأن اباه لم يكن له حق ذلك أولاً ..!

لم يعد يعنيه ذلك ما داموا سيدفعون الأجرة في نهاية المشوار ، ما داموا لن يسلبوه من كرامته شيئا لانه مجرد سائق في خدمتهم ..

كان يعرف ان الطريق نحو الحياة صعبة ، فقرر أن يسيرها بطريقته ، ثمة جانب تجهله في كل شيء ، حتى نفسك أنت تجهل كيف يراها الناس ، ولانه كان يعلم ذلك لم يكن يُظهر أكثر مما يراه الناس من ملامحه النصف مبتسمة ، النصف حزينة ، النصف مدركة للمسافات والتي تتجاهل طولها حتى لا يقصر في عينيه أمله وحلمه ، في بطاقته الشخصية كانت تختفي كلمة صغيرة جدا هي كل ما كان يملك قبل أن يُصبح خلف مقوده ستة عشرة ساعة في اليوم ، بدل أن يكون على كرسي الطبيب يفحص أسنان مرضاه ويبتسم ، نعم .. المهنة : طبيب أسنان عام ! ، خانةٌ لطالما تأملها كثيراً حين تُزرع في رأسه علامة استفهامٍ صغيرة أرهقته لأعوام ، تنتشر في وجهه على هيئةِ شحوب وغضب ، ما كانت للاجابة أن تختلف كل مرة .. وما نفع اسماء وألقاب لا تُسكن صوت بطن جائعة ، لا ترسم ابتسامة حقيقية تمنى ان يرسمها على وجهه .. ووجه مرضاه .. وأخواته !

أحيانا ترى ما يستدعي حزنك ، لكن لا تملك مشاعرًا تكفي لتحزن عليه ، أظن هذا الشعور يسمى تبلد .. وأظنه مريح وإن لم يكن جميل..، كان ينزع من وسط تبلده ابتسامة صامتة ، حتى ظنّه بعض من يركبون معه أنه من ذوي الاعاقة ، لم يفقد حاسة السمع ، لكن رأسه مشغول بعالمه الداخلي الذي لا يهدأ ، الذي يخلق زحاما بين الزحام ، فيصطدم بصوت نبضه المضطرب ، وخوفه الذي لا يجد الامان ؛ كان يخشى ان تضيع بين الحكايا الفارغة تفاصيل ملامحه التي أرهقها المسير ...

يخشى ان ينسى على احدى الدروب اسمه الاول الذي تمنى أن ينطقه أحدهم ولو لمرة واحدة .. د/قيس ..!!

يتبع ، ،

منظر قطرات المطر أمام أضواء السيارات لا يستطيع أبرع الرسامين رسمه ، وشكل السماء وهي تأسر العيون لضوئها لايملك أحد ان يصنع الدهشة سواها ، لذلك أعشق الطرق في تلك الاجواء رغم صعوبة الحركة فيها، وكأنها تهبني تلك الحرية التي تتجلى في نقاء قطراتها بعيداً عن البشر ، تُرغمني دموعي احيانا على ان اصنع من مظلتي عذراً انيقا للخروج من السيارة والتبلل بالمطر ، وأحيانا أسمح للهواء بأن يحملها بعيداً لأبكي كما أشاء !، عجيب أن يبكي رجل في بلادي ، بل هو رأس العيب وسنامه و عنوانه المحظور أيضاً ، وكأن ما بداخل تلك الضلوع ليس قلباً .. انما حجارة فرعونية منقوشة بماء الصبر ودماء الحروب ، وكأني لست بشر !، كان زملائي يهزئون مني حين أبكي مع طفل صغير حين أقوم بخلع ضرسه فيتألم ، كان ذلك لا يليق بقلب طبيب ولا بقلب رجل ، فالبكاء للنساء ، لكنني لم أكن أمنع قلبي من أن يُشارك الصغير وجعه ، على الاقل كنت كل مرة أطمئن انني ما زلت انسان !

قمّة الضعف حين تكون في مقاعد المشفى تنتظر من ينادي على إسمك بفارغ الصبر، لأن الوجع الذي تمكن منك كان أكبر منك عمرًا، أكبر منك احتمالاً ، وكنتُ أعلم أن هذا الالم يتجمع في كل خلية اذا كان الطبيب لا يُشاركنا ما نشعر به ولو زيفاً ، كنتُ أضع نفسي مكان المريض حتى أستطيع ان أربت على كتف ألمه وأخففه ولو بابتسامة صغيرة ، ويبدو أن تلك كانت احدى اول القواعد الخاطئة في الطب ، فانت يجب ان تتنصل من انسانيتك وشعورك حتى تقوم بمهمتك على أكمل وجه ، لذلك لا ترى الطبيب ينجح في علاج الاقربين له ، لانه لا يستطيع فصل قلبه عن عقله في تلك النقطة بالذات ..!، لذلك قررت ألا أبيع قلبي مقابل حفنة من المال أنالها كل شهر مع ابتسامات زائفة ، جعلتُ ايجار قلبي مدفوعاً مسبقا لحسابي ، حتى اتأكد للمرة الثانية أنني انسان ولست صرافة مالية في زاوية شارع ما ! .

كان جنونا أن اخلع (البالطو) الابيض واترك كرسيّ العيادة التي تحمل اسمي اللامع ، لأرتدي قميصا داكنا وأسند قامتي لمقعد سيارة أجرة أتساوى فيها مع أي شخص لم يتعلم كتابة اسمه حتى ، فقط كان حلمي حين دخلت الطب أن أكون جزء من حالة الأمان التي يتمناها كل موجوع ، وليس آلة جشعة تبتلع الالم والصوت وحتى المشاعر لتكون فقط مُستوعبا لكل فئات العملات والمعاملات التجارية وحسب ..، ربما حين أقف الان على شط البحر نهاية اليوم لا يعرفني أحد ، ولا يعبأ بي أحد ..وربما أكون أقل من أقل شخص يقف معي يتأمل الأمواج ، لكنني على الاقل أشعر بداخلي أنني كما أردت ، ذاك الذي يفرح بالمطر مع البسطاء ، ويتخفى تحته إن فاض به حزنه .. يُنصت للجميع دون مقابل ، يبتسم ان واتته الفرحة وينأى بنفسه ان صار موجوعا دونما زيف او خداع ، لا يهزأ من دموعي أحد " لاشيء يستحق البكاء " ولا يلومه على جنون

ضحكته أحد ، كنتُ أريد أن اكون قيس في رداء الطبيب ، لكن الطب رفض أن يكون جزءً من قيس.. فتركته وتركني !

لا زلت أتذكر ملامح أمي وهي تصرخ في وجهي "كل هذا العمر الذي أفناه والدك عليك لكي تُكمل تعليمك ها أنت تلقيه أدراج الرياح ، مجنون أنت يا قيس ، ويبدو انك تريد ان تقتل والدك قبل موعده ، سنين وانت تتعلم والان تضع نفسك في مكان تتساوى فيه مع من لا يفرق بين الخمسة والدائرة ... !"

لم أكن أملك ذريعةً أحاجج بها أمي او ابي في تلك الظروف ، خصوصا اننا في ظروف كنا نحتاج فيها لكل قرش ، الجميع حولي كان ينتظر تلك اللحظة التي اكون فيها د. قيس على سن ورمح ، حتى يُفاخر بي أهلي أمام اقاربنا ، وتذكرني اخواتي في كلامهن كلما حانت لحظات التباهي امام زميلاتهن ! . الصراخ جيد ، مُبهج ، محفز على التفريغ ، متوافق تماما مع حالة الكبت التي كانت تكبر في صدورهم وهم يضغطون على انفسهم ليكملوا تعليم ابنهم البكر ، كنت أقدّر ما يشعرون به ، ولا أنكر انني كنت أتالم لأجلهم أكثر من حسرتهم التي تحترق في قلوبهم على هذا الابن المندفع ، المشكلة أنيّ كنت أكره حدة الضجيج في صدى اصوات الغرباء وهم يدفعون بي نحو الهاوية أكثر ، كل من كان يأمل في علاج مجاني لدى ابن جارهم تلاشى مع حماقة تفكيره ، وصار لهم الآن حق النهي والزجر انتقاما لمستقبلهم المأمول ! ، لكن ...أنا ما كنتُ أستطيع ان اضع نفسي في موضع مسئولية لست بحجمها ، أن أكون سعيدا بتعاستي الواضحة أفضل من أن أكون تعيسا بسبب سعادة كاذبة ، فقط قررت أن أختار ولو لمرة واحدة ما أريد ، ما أرى اني أهل له ، مجنون رغما عن عقل الظروف وأعلم ، لكن بعض الاخطاء التي نندفع نحوها ربما هي ما تكون عين الصواب !

كثيراً ما خطر في بالي لو انني كنتُ شيئا آخر - طاولة مثلا- ورفضتُ الفكرة، المثير أن ذلك قد يحدث يوما... أحببتُ أن أجرب ذلك ..

الغريب ...أني لم أتوقع أن فكرة الطفل تلك قد تلاحقني يوماً .. وكأنني لعبة في يدي ذات الطفل الذي اراد أن يكون طبيب أسنان ..فصار سائق تاكسي ..!

اخترت الجنون ..ربما .. حتى لا أسرد على نفسي عدد المرات التي قضيتها وأنا مشغول بالترقب، مأخوذ بمتابعة أمنياتي بينما تذبل، واقفا على حافة العمر يمضي دون حلم جديد، حتى لا ألوم الأيام التي رحلت ولم تمنحني فرصة أن أكون غيري، أعتب على كل من أشار علي بأن أكون نفسي وحسب..!

أحببت أن اجرب مكان غيري .. حتى أعرف حقاً ... من أنا ..!

يتبع ، ،

هـــي الى نفسها :

" ما معنى أن تلتقي بشخص صدفة ؟!

ما معنى أن تقابل وجهك بين الوجوه العابرة فتقف للحظة أسير الدهشة ؟!

تدرك حينها أنك صاحب الملامح الضائعة ، من يبحث عن كل شيء ، حتى عن نفسه ، تتطارد أشباهك واحلامك في الدروب وبين طيات كل صباح ، لايعني النّسيان أنك لم تعُد تتذكّر..بل يعنى أنك أصبحت ذا ذاكرة ممتلئة حد أن بعض التفاصيل تجبرك على السقوط منها دون العودة، أنت من تسقط منها .. لا هي ؛ لانك لو استطعت العودة لوجدتك هناك ودموعك لم تجف بعد !

أنساك .. وأنا لا زلتُ أتذكرك وأحيا بذكراك ، اسمك الذي كان يشعرني بالأمان، أصبح اليوم أعظم أسباب خوفي!، جرحك المنسي يا أخي لايموت، إنّه مابقي من

ذكرياتٍ تربطني بك، ثمّة غيرك حولي ؛ جميل بما يكفي لأنّ يحلّ محلّك، لكن لا شيء يعدل قلب الأخ الذي يخاف ويحب ، حب بلا مقابل ، وقلب معطاء لا ينتظر الرد ، تلك الغيرة عليّ التي كنتُ أراها في عينيك وأضجر منها كانت وحدها ما يُشعرني بالامان كلما غفوتُ متعبة ، أعلم أن ثمة من أشغل تفكيره ويهمه أمري ..دون سبب !

إصرارك على أن تترك البلاد لتُجاهد بعيداً كسرنا جميعاً، ما كانت لأمي أن تمنعك ، وما كان لنا أن نتحكم في قرار اخينا الكبير ، كان لدينا أمل أن تعود يا رشاد ، لكنك لم تفعل ...ولن تفعل ...، فقد اخترتَ طريقاً لا عودة منه نحو الخلف ، صعود نحو السماء ودماء كثيرة تنزف ممن يحبونك قبلك ، اه يا اخي لو تعلم كم افتقدك ، أحن الى صوتك ، الى غضبك ، الى اعتذارك لي حين ابكي بسببك وانت تقول "اعتني بنفسك يا سمية ، فلا أحد سيدوم لك سواكِ، وحينها يجب أن تعرفي أين تضعين نفسك "

أتركُ لك رسالة فارغة كل يوم الى جوالك ، عندي أمل أن تعود ومعك الرد ، أن ترد على أختك يا رشاد ، وعلى أمك التي ما زالت تدعو لك كل صلاة بأن تعود ، لا زالت على أمل بذلك .. لكن ما من شيء يعود .. لا شيء !

كلّما التفتنا للوراء وجدنا أننا كنّا أجمل .. أبسط ... مع هذا نلهث للتقدم .. وكأن الماضي لا يعنينا ؛ وذاك ما أفعل يا رشاد .. ليس لي .. بل لأجلك ، شهر واحد وأحمل شهادتي التي لا طالما وعدتني بهدية جميلة حين تراها بين يدي ، ربما لن تكون هناك حين يتوج اسمي بين المتخرجين ، لكنني سأهديها لك ، للانسان الذي أصرّ على اكمال الطب حين أردت ان اغير التخصص لمجال الديكور " ستعالجيني ، لن ارضى بغيرك طبيبا لي يا بنت ، فاختاري .. أن يشفيني الله على يديك ان مرضت ... او اموت!!"

رشاد ..

يا من صبّني في كاسة الجرح : ليمون ، من رسم وجه حزني بفراقه (مراية) ،تركتني باحساس عجز وشوق مغبون

..عجزتُ بعدك استر الحزن (بعباية) ..!

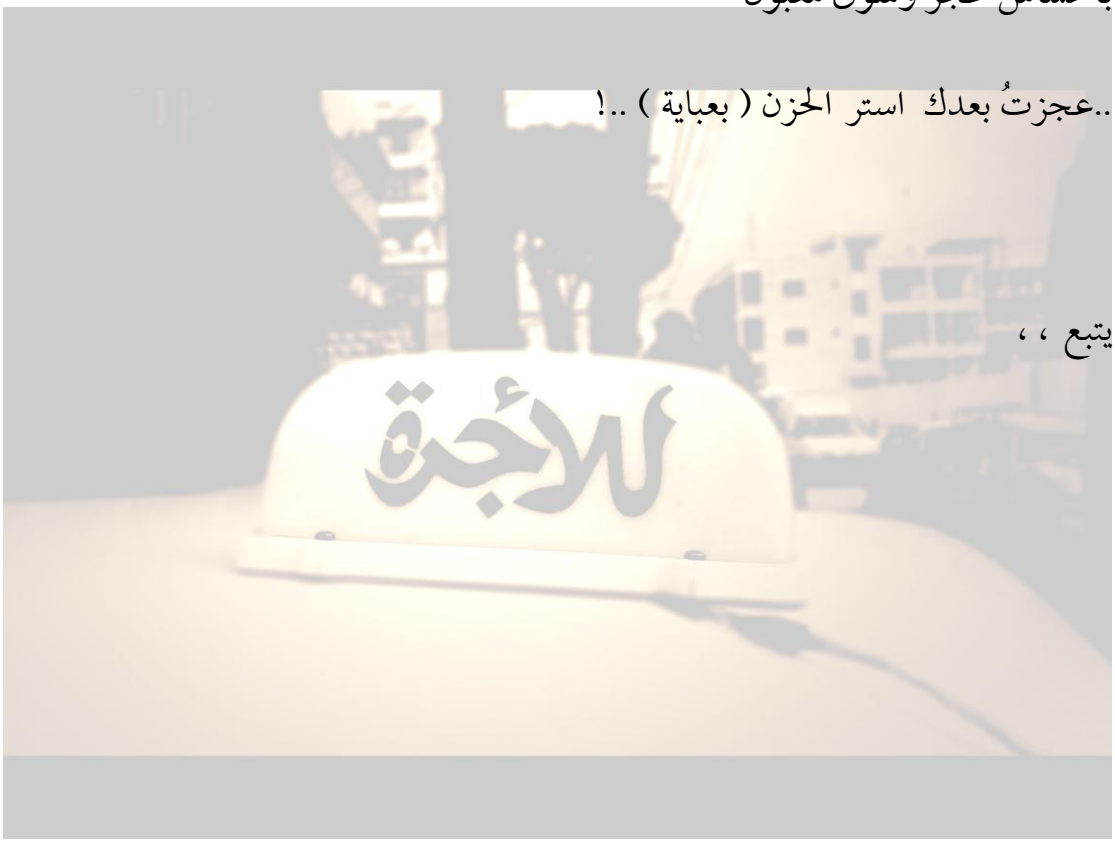

يتبع ، ،

السابعة صباحاً ، موعد الأرق الذي يعرفني ، موعد العمل الذي لا أعرف غيره ولا يعرف سواي ، في الواقع أنا لا تُشرق الشمس في عيني الا لأجله ، ١٦ ساعة من الضياع بين الدروب حتى يغلبني التعب او أغلب الوقت بالمبلغ الذي يجب أن أحصل عليه كل يوم ، مشوار الى المطار اربع مرات باليوم كافي لان اعود وان ممتلئ السجية ؛ لذلك يسمينا الجميع (مافيا المطارات) لأننا نستغل جهل الراكب بالتكلفة الحقيقية ، او ربما طمعاً بما في جيبه ، ذاك الذي حمله لركوب طائرة بدل قطار درجة سياحية !

عندما أمتنع عن قهوة الصباح أمنع نفسي عن الأحلام وأكون ذلك القلب الذي يطفو على هامش الوحدة ، هي فأل اليوم الحسن ، تبدو لي أجمل من أي وطن نسي في الزحام أننا مواطنوه ، حينها لا حاجة لي بالوطن ، بل - دلّة - قهوةٍ ، أعدتها أمي !! ، وما الوطن الا دفء من يد حانية ودعوة صادقة ..

الشوارع تبدو هادئة على غير عادة ، والسماء غائمة كأنثى تكتم دموعها بقهر ، أحب أجواء الربيع تلك التي لا تعرف حينها بأي فصل أنت بالضبط ! ..

بدأ المطر يشتد ، والرؤية أصبحت أكذب من ان تكون واضحة ، سرعتي انخفضت على الطريق للنصف ، أسير نحوها أقرب للأرصفة ، لأنه ما زال لدي قلب الطبيب الذي يتمنى أن يُعين أحد ما ، فالقلوب لا تتبدل مهما غطتها الحياة عنوة ، أم واطفالها تنتظر من يوصلهم لمنزلهم البعيد ، او رجل غاضب ترك عمله لينتقم المطر من غضبه فيقرر العودة لمنزله باي طريقة وينسى ان له سيارة هناك ! ، ابكي ياصديقي. ابكي أكثر، طهِّر روحك من غُثاء هذه المهزلة، من وعثاء غضبك . لا تعتقد أن أحدًا سيشاركك ألمك، وحدها الدموع ستفعل ذلك.. أخرجها الآن!، المطر فرصة والربيع وحده اقتناص !

" تاكسي ، تاااكسي " صوت من الزاوية اليمنى ، حاولت أن اتخذ الجهة اليمنى بهدوء في هذه الرؤية المعدومة ، انزلت النافذة اليمنى " نعم سيدتي"

- لو سمحت لا استطيع الانتظار هنا أكثر ، هل تستطيع ايصالي الى مركز النور الموجود بشمال المدينة

- المخصص لذوي الاحتياجات الخاصة ؟!

- نعم ، هو فعلا

- لكن ... سيدتي نحن هنا باقصى الجنوب ، والحركة تبدو أصعب مما تتخيلين ..

- أرجوك ، يجب أن اكون هناك اليوم ، سأعطيك المبلغ الذي تريد ، ولن استعجلك

- ..... حسنا ، تفضلي

تبدو السيارة في هذه الاجواء كالسلحفاة العرجاء ، خطوة أسيرها ، ونقف قليلا مع الزحام وانعدام الرؤية ..

- أكيد نحن بالربيع ؟!! أشك

- الصيف هنا يا سيدتي تسعة شهور في الغالب ، ام البقية فكل يوم لا يحرمك التمتع بالفصول الاربعة حصريا !

- محق فعلا ، ومع ذلك لا نتخلى عنها ، مهما ذهبنا بعيداً لا بد أن نعود !

- تماماً ، سيدتي اعذريني ، لكن المكان الذي أردتي بعيد جدا ، واخشى ان نصل مع غروب الشمس بهذه الطريقة !! ، أما كنت تستطيعين أن تظلي في بيتك وتؤجلي عملك للغد ، فحقا الجو ليس بالمشجع لسفر كهذا .

- محق للمرة الثانية ، لكن بعض لدي هناك بعض الاعمال التي لا يجب أن تؤجل للغد ، لان العمر لا ينتظر يا سيدي علينا أن نحترم أعمار الاخرين المهدرة فيي الانتظار كذلك !

- صحيح ، أعانك الله سيدتي.

- شكرا لك ، يبدو لي من أسلوبك أنك ذا تعليم جيد ، الفواصل التي تضعها في اثناء حديثك مرتبة جدا

- يبدو أنك تعرفين سائقي التاكسي جيدا !

- طبيعي لكوني معظم انتقالاتي بها ، ومع الوقت تبدو الفوارق بينهم جلية ، والحديث معهم يكشف الكثير مما لا يمكن توقعه ، انا اراهم مدرسة متحركة !

- لكن انتبهي ، فليس الجميع أهلا للحديث معه ، البعض أقرب لبائع كلام منه الى مصدر حقيقة ، لأنه يعلم أنه لن يبحث وراءه أحد ..

- لكن أيضاً لدي عقل أزن به الامور ، لا تقلق ، الحديث مع الناس مهنتي

- صحفية ؟!

- لا ، لكنني أطمح لأن أكون أقرب للناس حتى أصبح أكثر حرفية في مهنتي ، فالطب النفسي يحتاج لهذا النوع من الذكاء الاجتماعي ..

- أمر مُلفت ، المهم ألا تتخلي عن أمرين : مبادئ المهنة التي حاولوا أن يعلموكِ اياها خلال سنين دراستك ، وضميرك .. فبدون ضمير ستصير قضيتك خاسرة

- بالتأكيد ..

- المطر توقف والشمس ظهرت أخيراً ، أمر جيد ، علنا نصل الى مركز النور أسرع من ذلك

- أتعلم .. أنا ذاهبة الان لمركز النور كمتطوعة ، وأسمع الكثير من مشاكلهم منهم ومن ذويهم ، وأنتم أحد مشاكلهم الكبرى

- نحن ؟!!

- نعم ، فأكثركم إن اكتشف ان من اوقفه كفيف او مقعد او يحتاج لمساندة ولّى هاربا وكأنه لم يرى شيئا

- ليس الجميع يا سيدتي ، من جانبي أحاول قدر المستطاع مساعدة الجميع دون انحياز

- جيد ، كذلك لا تحاول أبداً ان تتعامل معه بشفقة مصطنعة او طيبة زائدة ، فالشفقة التي تقدمها لمن يتألم تزيد حدّة الوجع في قلبه ، تجاهله ، أكذب عليه بأنك لا تشعر به حتى لا يتورط بالخجل من ضعفه ! ، ولا تطل النظر له وكأنك تشاهد كائنًا غريبًا. لاتنسى أن له الحق مثلك في ممارسة حياته دون هذه النظرات التي تسرق سعادته ، فهم مثلنا تماما وربما أفضل في الكثير من الاشياء

- صحيح ، طريقتهم في الحياة مختلفة فقط ، علينا ألا نرفضهم لاختلافهم فقط

- المهم أن يكون التطبيق يا سيدي ... نعم هنا .. يمكنك أن تقف على أقصى اليمين هناك ..

- تمام ، اسمي قيس على فكرة وليس سيدي وهذا كرتي الخاصة ان احتجت لأي مشاوير أخرى ، تحت أمرك

- ممم ، طيب شكراً

سيناريو كهذا يحدث كثيراً معي كل يوم ، حتى أنني بت أحفظ الاجوبة عن ظهر قلب : اسمي .. عملي .. اين اسكن .. متزوج ام لا .. دخلي الشهري من عملي هذا .. رأيي في الوزير الفلاني ..الخ ، لم أعد آبه كثيراً بالسائل .. ولا بالمسؤول .. فهو طريق جمعنا وسيفرقنا .. وفقط

أنا ومنذ أن توقفت عن البكاء من الثقل الزائد وأنا أخرج التاسعة مساءً بعد انتهاء عملي للمقاهي، وأختار شخصاً مريحاً وأفتح وجهي له. الغرباء هم النار التي لا تحرقنا..

كل ليلة أمارس الروتين نفسه، وأجلس في الزاوية نفسها، وأطلب المشروب نفسه، وأفكر بالطريقة نفسها، المختلف أنني لا أكون الشخص نفسه ولا أحد يعرفني

أحد الغرباء هناك صار لي قريبا جداً ، منذ ٤ سنوات وهو ذات الغريب .. سلام يجمعنا ..بعض مشاركة للماضي المنطوي بعيداً ، بضع اعترافات وسلام ..

ربما هو الغريب الوحيد الذي قد ائتمنه على اسراري الصغيرة ، في الواقع أن أرميها للنسيان الذي يسكن أحد حجرات قلبه كما يسكنني ، فنحن نتذكر فقط ما يعنينا ، أما ما لا يهمنا فانه يكون طي النسيان ...

- أنت هنا يا قيس كما عهدتك ..
- طبعا ، لاني انتظرك .. اجلس يا رشاد ..!

يتبع ، ،

- أنت هنا يا قيس كما عهدتك ..

- طبعا ، لاني انتظرك .. اجلس يا رشاد ..

- وها قد جلسنا ، لا أفهم حقا سر تمسكك بذات المكان ، أعتقد أحيانا أنك قد اقترضت من البنك لتكتب هذا المكان باسمك

يبتسم ابتسامة جانبية

- علينا أن نحافظ على بعض الاشياء في حياتنا كما هي ، حتى اذا ما رحلنا عنها وجدنا أن شيئا ما يفتقدنا ..لا أحد يُدرك رحيلنا يا رشاد الا إن افتقد وجودنا !

يرفع رشاد يديه لصاحب القهوة يطلب منه كأسين من الشاي قليل السكر كعهدهما

- أتعلم ، الشيء الذي يدفعني لأن آتي هنا كل يوم هو أنت ، في عينيك حزن عجيب يروق لي ، وكلامك المليء بالفلسفة رغم انه يعلق احيانا في حلقي الا انني أحبه ، أشعر كثيراً أنك تكبرني بعقود مع أنني في الواقع أكبر منك

يهز الكوب يمنة ويسرة بحركة لا مبالية

- لم ترد عليّ بالأمس ، لماذا لم تحكي يوماً أي شيء يخص عائلتك ، ، حتى هاتفك لم يُصادف ولو لمرة من المرات ان يرن من احد اقاربك يتفقد مكانك ، لا أدري لماذا تحمله ولا أحد يسأل عنك ..

- الكثير منا لا يحمل جواله بجيبه حتى يسأل عنه أحد ، بل ربما يكون مبرراً مقنعا حتى يبتعد عن الآخرين حين يدعي أنه يُحادث أحداً ، هواتفنا هي أكثر من يعرف أسرارنا ، تعرف أننا ننتظر كثيراً ونبكي كثيرا .. لكننا قد نكتب رسالة زائفة (نحن بخير =)) ، وانا من هؤلاء " شاي آخر لو سمحت " ، مممممم حسنا ، في الواقع كنتُ أفكر بماذا أرد عليك طيلة الأمس ، أعتقد أنني اتهرب من النقاش حتى مع نفسي حول الموضوع حتى لا أتذكر ما أنا فيه ...

- أنا أسمعك... لم تعهدني أخبئ الاحاديث في قلبي ، ما بيننا اكبر من الخوف على ما اظن .

- ..... منذ أربعة أعوام في أحد الليالي دخلت الى أمي أوقظها من نومها ، أخبرها بضرورة الحديث معها ، كان كلامي كله حول موضوع واحد وهو فكرة الجهاد ، كنت احاول ان اناقشها وهي تبكي ، شعرت في قرارة نفسي بسوء تلك الفكرة ، لكنني أردت أن ابتعد عن المكان تماما وعن كل شيء ، وكانت الذريعة الوحيدة هي فكرة الجهاد في

أحد بلاد القوقاز (الشيشان) كما قُلتُ لها ، كانت تُحرقني دموع أمي لكني ما أحببتُ أن أظل جانبها أرعى اخوتي كما المربيات المسنات ، لم أرغب بتلك الحياة التي أشعر أنها تسلبني روحي كل يوم

يضرب قيس على الطاولة بشدة ويمسك بقميص رشاد

- أنت .... ،مغفل ، تترك أمك في حرقة قلبها طوال هذه السنين وربما تظنك الآن ميتاً ، ومن يدري ربما أصابها شيء بعدك ، أأنت الان مرتاح وأمك تموت بسببك كل يوم ؟!

- .. اهدأ .. اهدأ ارجوك واتركني ، انا اطمئن عليهم من بعيد واعلم انهم بخير

- لكنك انسان ما عاد فيك خير وانت تختار الهروب على المواجهة ، كان الاحرى لو انك شققت طريقك قرب أهلك وحاولت أن تُحسن وضعك او تبحث عما يجعل لك اسما ، على اقل تقدير حتى تبقى ذاك الانسان الذي يراه الجميع حنونا متعاونا ..

اخرق ... وماذا تفعل هنا اذا ؟! هاا .. لمَ لم تذهب للشيشان كما قلت..

على القهوة (شيشة) لا جنود شيشان على فكرة ... !!

يصمت رشاد ويذهب سريعا دون أن ينظر الى قيس ..

"اهدأ اخوي ، لا تعصب حالك كل واحد يعرف ايش الاصلح له، " يقول صاحب القهوة لقيس

ينظر اليه بحدة في عينيه وهو غاضب

- الاصلح له فقط حينما يتعلق الامر به وحده ، لكن حين يرتبط مصيرنا بآخرين فليس من حقنا أن نرمي أنفسنا في النار غير مبالين بمن سيُحرق معنا !

" وايش رح تسوي يعني ، الكل هنا نفس الحالة ، الفاضي بس واللي مضيع الدنيا وراه هو اللي يجي يجلس هنا ، احنا ملجأ الرجال الضايعين من الدنيا هههههههه "

يُحادث قيس نفسه

"يعني مثلي الآن، هه ، يغمرني شعور متهالك بالضياع ، رشاد حطّم الخطوة التي قررتُ قفزها قبل قليل نحو سعادة ما ، يعيدني للحظة موجعة، يشبه شعور اتّصال من شخص لا أرغب به!، حتى الغريب قد يُؤلمنا إن اقترب لوهلة .. يُذكرنا أننا ما زلنا في ذات المكان الموحش الذي قد نختلف في تفاصيله لكننا نتشابه في مضمونه ، لا أحد يعبأ بوجع أحد .. الكل يبحث عن ذات السراب .. ولا يطاله .. ولا نتعلم .....

>>ترن ترن <<

'السلام عليكم ، من معي '

' وعليكم السلام .... أستاذ قيس ؟'

'نعم '

' ممم لست أعلم إن كنتَ تذكرني ، أنا التي أوصلتها الى مركز النور منذ عدة ايام ، هل تذكرني ؟'

'... اه ، ، نعم سيدتي أذكرك ... تحت امرك '

'لو سمحت أريدك أن توصلني غداً من مركز النور نفسه الى منزلنا الموجود في طرف المدينة المقابل '

'... اي ساعة

' الرابعة عصرا ، هل تقدر ؟'

' ولا يهمك ، سأكون هناك على الموعد '

'شكرا لك ، مع السلامة

' مع السلامة

يتبع ، ،

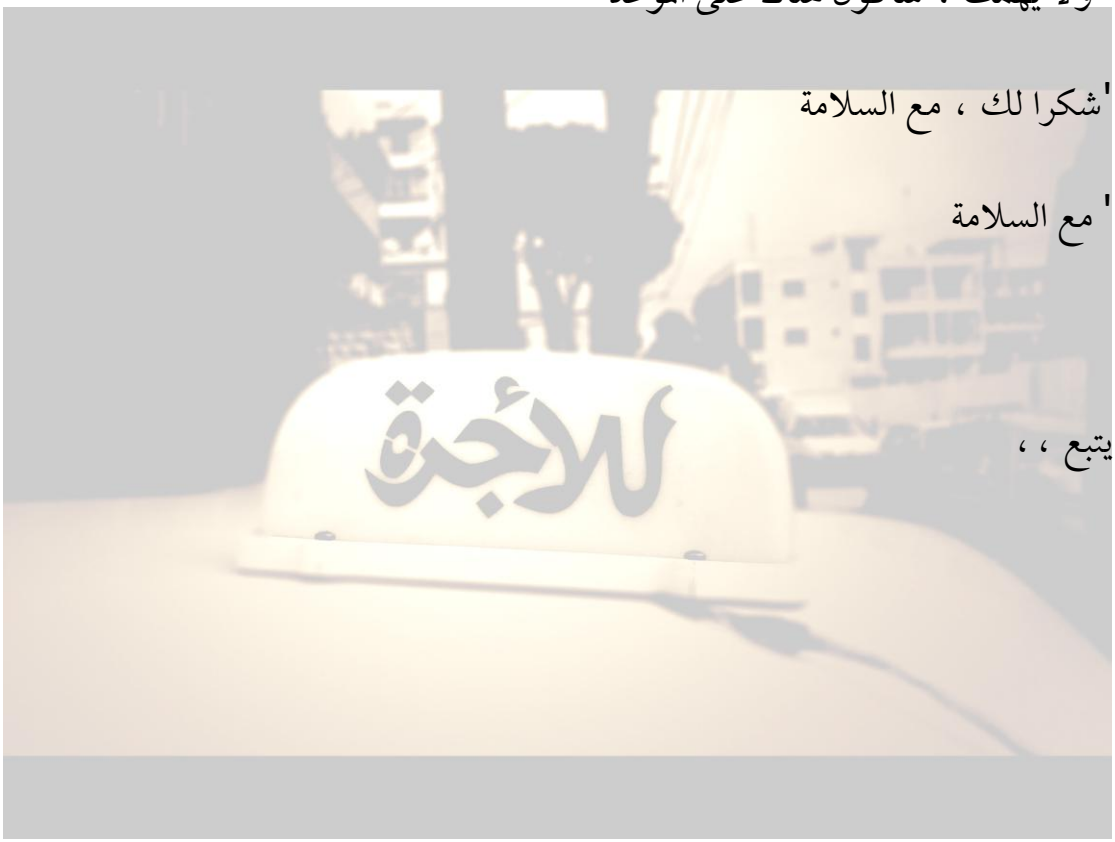

في الليل .. تتساقط أحجبة الروح ، نصير خيوط وهن رقيقة، العتمة تمرّ من خلالنا و كذلك ضوء القمر ، تومِض الأسئلة داخلنا : لماذا أنا هنا ؟

الليل هو ملاذ الضياع فينا ، نرمي كبريائنا جانباً ونمسح الالوان التي تعلونا ، نضع ابتسامتنا الرخامية في أدراجنا بجانب الكحل والعطر ، وكأنها في الواقع وزن من وهم لا يعنينا ..! . كثيراً ما أنظرُ الى ملامحي وأتأمل ما ينقصني لأكون سعيدة ، لأكون سمية الطفلة البريئة التي ترتدي وشاح المرأة الناضجة، وجهي لا ينقصه كحل ولا حمرة ولا حتى بريق ، أعتقد ان قلبي هو المذنب ، هو المقيّد في الماضي والألم ويواجه حاضره به ، وثوب الماضي بالي لا يمكن أن نستضيف به ضيفنا القادم ، سيهرب منا وسيتركنا للماضي والاوهام ، أعتقد ان الحزن عادة قديمة، إتيكيت المرحلة القادمة أن تسخر من أوجاعك، أن تضحك عليها حد البكاء ، أن تكتب نكتة توازي الالأم دداخلك

لتضحك وتضحك ثم تنسى لم ضحكت ، المهم انه لن يعود لأشباح الوجع أي سلطة عليها ، فأنت أكبر منها بابتسامة !

تنظر الى ساعتها وتُقلب دفاترها في احد الادراج التي كساها الغبار والنسيان " ماذا لو عاد أخي بعد كل هذه الفترة حقاً ، ماذا لو انه طرق الباب مفاجئا الجميع بعودته .. هل سيطرق الفرح حينها بابنا .. أم اننا لا أبواب للفرح فينا ؟! ، هل ستبتسم أمي مجدداً أم انها نسيت طعم الابتسامة ككل شيء ؟! ، هل حقاً سعادتنا توقفت عليه وحده ، على شخصه و حضوره ، أم أننا أضعنا بوصلتها منذ زمن لكننا لم ندرك ذلك الا ببعده ؟!

كل ليلة أزداد وعيّا بأن مأساة الوقت هو أن تراقب ساعة تقفز مهرولة للمستقبل وتنساك خلفها والعالم من حولي يجري للحاق بها ، وانت تراقبها بهدوء وتسير للخلف !، كل ليلة أشعر ااني اسير للخلف حقا بأفكاري تلك ، ولا أدرك ان الغد يستحق الكثير من الانتباه ، حتى لا يفوتني .. وأفوت مني !

^ ^ ^ ^ ^ ^

{الرابعة والنصف عصراً }

أسوأ شي في الحياة الانتظار ، ولا أحد يُقاسي الانتظار مثلنا نحن سائقي الاجرة ..وبلا مقابل أيضا!، نصف ساعة وانا هنا وهي لا ترد على اتصالي بها ... يااااربي أرحل ام انتظر ..

تُقبل مسرعة من بوابة المركز ..

-... السلام عليكم ، اعتذر جدا على التأخر ، كنتُ انهي بعض الاوراق ، اكرر اعتذاري

-وعليكم السلام ، طيب .. ولا يهمك ..

-كم تتوقع أن يأخد الطريق منا وقتا ؟!

-نحن الان في وقت الذروة ، والمسافة أصلا بعيدة .. ربما ساعة

-ماذا ؟!!! ساعة .. كثير

-وماذا افعل ، كأنكِ لا تعيشين هنا !

-بلى ، المشكلة انني على عجلة من أمري ويجب أن اعود للبيت سريعا من اجل أمي

-أهي مريضة ؟! تستطيعين الاتصال بالاسعاف ان كان الامر خطيراً فساعة مدة طويلة و..

-لا لا الحمد لله ، لكنها تحتاجني في بعض الامور المنزلية

-جيد ..أجيد الطبخ لو أردتي المساعدة على فكرة

- تنظر اليه باستغراب " طبخ! ، غريب.. وهل لديك وقت لتجيد الطبخ أيضا ؟! ، أخالك صديق الطرق والاشارات طوال اليوم .. ولن أعجب أن كنت تنام في السيارة أيضا ، أعتقد أن مصدر رزق المطاعم الصغيرة هو انتم ، فالعمل لديكم أهم بكثير من فكرة الطعام

يبتسم ابتسامة خفيفة وهو يراقب الاشارة

- سؤال .. هل من الممكن أن يتكفل ظلك بالذهاب لـ العمل ..!

- .... ممم طبعا لا .. هو مجرد ظل

- كذلك فكرة ان آكل من يد غيري ، لا معنى لها ان قام أحد بها غيري .. ناهيكِ عن ان المطاعم خصوصا الصغيرة منها قد لا تكون نظيفة ، بل وتنشر العدوى والامراض ..

- لكن الكثير يأكل منها ولا يُصيبه مكروه

- هه ، في الواقع لا ، هم قد مرضوا منها مرة او اثنين على أقل تقدير ، لكن أجسامهم اكتسبت مناعة منها .. وهم لا يستطيعون ان يختاروا غيرها بكل حال لأنها الارخص !، يعني باختصار اخترتُ لنفسي الطريق الاسهل (حمارتك العرجة ولا سؤال اللئيم)

-اها.. تفكير جيد ، المهم أن يكون لديك وقتٌ لهذا ، لكن .. أليس لديك من يفعل هذا لأجلك .. خصوصا أنك من أهل المدينة كما يبدو ولست غريبا عنها

-بلى ، لكني أسكن حاليا وحدي لبعض الظروف

-اها ..

كم حسابك هذه المرة ؟١

- لا سيدتي ، أكره هذا السؤال خصوصا أن كان الشخص قد تعاملت معه سابقاً ، تعرفين المدينة ، قيّمي حسب رؤيتك ولن أجادلك

- الجميع يقول هذا لكنهم يختلفون بعد ذلك على القرش ان نقص

- هههههه ربما ، لكن صدقيني الموضوع سيّان لدي

- طيب .. مممم سؤال قبل أن أنزل لأننا اقتربنا ... هل تتحدث بحرية هكذا مع كل من يركب معك ..؟!

- أتعلمين يا سيدتي نحـ..

- لحظة .. اسمي ليس سيدتي ، تستطيع أن تقول لي دكتورة إن شئت .. لستُ كبيرة الى هذا الحد لتقول لي سيدة !!

- أ... طيب يا دكتورة ...أتعلمين الغرباء يكترثون لأمرك ، لكن لمرّة واحدة فقط ..قد تكون بطلبك او مفاجئة منهم ، قد يسمعون لك وينصتون ، وأحياناً يبوحون بكل ما لديهم وكذلك أنت .. لمرة واحدة .. ، وأنا أحببت أن أنال واحدة صادقة من عشر غرباء كل يوم على أن أنالها مئة مرة مجاملة من صديق واحد بكذبات لا تنتهي !

سكتتْ لوهلة بذهول ثم قالت

- دكتورة مين .. والله إنت اللي دكتور ! ، جميل حقا ما علمتك الحياة كأنك من أصحاب الشهادات ..

يتجاهل كلامها ويرد بهدوء

- ربما .. المهم أن نتعلم ..فصفعتين بهذه الحياة أشد ألما من خمسة قد نُضربها في المدرسة !

- صحيح ..

شكراً لك وللحديث معك ولوقتك ، تفضل هذا حسابك .

يضعها في جيبه العلوي دون أن ينظر لها

- شكراً دكتورة ... بس اسمك دكتورة !!

- ... دكتورة سمية ...

- عاشت الاسامي دكتورة ، ربما نتعالج عندك ذات مرة

- باذن الله .. فور ان اتخرج ..

- باذن الله

- مع السلامة

"أغلقتْ الباب خلفها ، وفتحتْ شيئا ما بداخلي أجهل ماهيته ..

أحيانا يستوطن قلبي غرباء حين تضعهم الصُدف قدراً في طريقك ..

لا أدري ، انفتحت في غرفة نفسي في وقت واحد أبواب الماضي والحاضر والمستقبل .. كل منها يبعث في نفسي شيئا كالإعصار... وغبار! "

يتبع ، ،

#

سأترك لك رسالة صوتية في مكان ما ، أحتاج لأن يكون الصخب في داخلي كلمات ، والحروف المكبوتة التي تبعثر ملامحي تشتاق لأنظومة ما ، أحتاج لأن أكلمك وان لم تسمعني ، غدا .. بالتحديد ٢٦/٥ من هذا العام الذي يمضي دونك أضيف لأول مرة حرف الدال ونقطة واثقة قبل اسمي ، سينسى أهل الحي الفتاة التي تلعب مع الصبيان الكرة في الشارع والتي تقفز لهم كل عيد طالبة الحلوى ، سينسى الكثيرون اسمي دون ألقاب ، لن يكون بمقدور زوجة جارنا التي تكرهني أن تناديني سمسم ، هذا الدلع الذي لا أحبه وكانت تستمتع وهي تراني غاضبة .. الآن ر بما قد تهرب من رؤيتي حتى لا تُجبر على أي نوع من الاحترام ..!

غداً .. سيتسنى لي لأول مرة أن أرفع رأس أمي بحق ، وأنا التي أنزلته كثيراً حين تضطر للاعتذار من الجيران على تصرفاتي المزعجة ..

غداً .. سأبكي كثيراً لأنك لست هنا ، لن تهزأ مني كعادتك لتقول لي " دكتورة على نفسك " ، لن تهديني ما كنتَ تنوي أن تقدمه لي يوم تخرجي ، ستغدو فرحتي حينها ناقصة دونك ، لكن عزائي أنني حققتُ لك شيئا مما تتمناه حتى إن لم يكن ما كنتُ اتمنى ..

بريد صوتي : ألو. قلبي يدق على نافذة غيابك. التي لم تشرق بك بعد، صوتي الذي لا أعرفه من بحة حروفه يتلعثم على حافة هاتفك. احتياجي ليس تسولا لشفقة قربك. اتصالي رغبة في شتمك ، لأنك وعدتني أن تكون هنا .. ونسيت وعدك يا أخي .. نسيت ..!

بريد صوتي : أنا ارسل هذه الرسالة لي وان كانت الى هاتفك ، أنا من احتاج أن انظر اليه واربت على كتفه واضمد غياب من يحب ..

بريد صوتي : ليس المهم أن تصلك رسالتي .. المهم أنني الآن تذكرتُ صوتي !

(..... ارسال ....)

^ ^ ^ ^ ^ ^

جلس قيس كعادته على القهوة التي يلجأ لها كل مساء ، لكن هذه المرة لم ينتظر أحدا ، كان شارداً بملامح ممتعضة غاضبة ، حتى من كانوا يمرون فيسلمون عليه أصابهم الخوف من أن ينفجر فيهم لأي كلمة ..

يدخل رشاد ويراه من بعيد ، يقرر الجلوس في أبعد نقطة عن عينيه ، لكن قيس يلمحه غير آبه به .، تمر نصف ساعة ، بعدها يقوم قيس من مكانه متجها نحو رشاد ووجهه

خال من أي تعابير او ردة فعل متوقعة ، يجلس في الكرسي المجاور له يفصل بينهما طاولة صغيرة - تجلس بعيداً هذه المرة !!

- لم أرد أن نتشاجر مرة أخرى

- ما من شيء يستحق الشجار في نظرك! .. حسناً .. ربما أنا المخطيء وانت الحمل الوديع الذي افترسته الذئاب في البرية فقرر أن يتحول ذئباً حتى ينفد بجلده !

- لا أتحمل منك هذا التشبيه

- لا ، بل ربما مجرد محاضرة تستمع لها على راديو قيس اف ام ، تعرفني أعشق التفلسف ، وانت الآن صيدة مناسبة جداً

ينظر له بطرف عينيه متجاهلاً ما سمع - ماذا لديك لتُضيفه غير التوبيخ ، أعتقد أنني من الصعب أن اعود لأهلي في الوقت الراهن ، لانه ما من أدلة على أنني كنت مجاهد ، وربما الآن يظنونني ميتاً .. عودتي لن تُغير الكثير

- ليتك صنعت ما يستحق هذا الغياب ، أنت كما أنت كما يبدو منذ رحيلك ، عاطل فارغ تائه بين الناس نصف معدتك قهوة ونصفها الآخر شاي بلبن

- وربع كيلو سكر ..

- أهاا .. وتمزح أيضاً! ، لا يحق لأهلك أن يبكوا عليك لو أنك مت ، أتعلم .. كان الأفضل لو انك مت حقا ، على الأقل تبقى ذاك الانسان الذي أسعدهم ذات مرة حتى يستحق دموعهم ، أن يسرقك الموت خيرٌ من أن تسرقك حياة أخرى يُدركون بعدها أنهم لم يكونوا أحد أركانها .. يا للسخف .

- تتمنى لي الموت يا قيس ، تتمنى الموت لصديقك !

- أنت غريب ولا أعرفك .. واليوم تُثبت لي أنك أبشع الغرباء ..

- دعني على الطرف أراقب الحياة، أطالع العالم من مكان منزوٍ، لا أتدخل، لا أعترض، لا أبذل جهداً في محاولة الفهم، ربما اختار دوري في حياتهم حين يحين الموعد المناسب

يقف قيس موليّا ظهره لرشاد – لا يعنيني الأمر ، أعتقد أن من خلقهم لن ينساهم ، أما أنت فلم يعد يعنيني أمرك .. لا يعنيني

- هه، لا أنسى سؤالك: ماذا تريد من الحياة؟ قلت لك حينها : الموت. الآن أنا أريد أن أحيا مثلما كنت ميتاً ومثلما سأكون ميتاً .. دعني وشأني

- سأدعك وشأنك ، وشأن اي طريق يجمعني بك !

ثرثرة:

الحياة غريبة ؛ انها أسهل من أن نعقّدها وأصعب من أن نفهمها، لكننا نخوضها بطريقة مُخيفة، بطريقة الذي يعرفُ الأشياء الصحيحة ويفعل عكسها !' إننا نعرفُ نفس الأشخاص ونفس الأسلوب ونفس المبررات ونفس الأفعال، ونفس المواقف. وكل شيء مُكرّر. ورغم كل هذا، فإننا لا نُجيد التعامل مع حياتنا!

عندها جميلة فكرة الموت حينها فقط لو كانت ميمها صاداً .. على الأقل ربما قد يرتفع صوتك للسماء .. فتهطل عليك بحياة على مقاسك .. مسالمة وواضحة !

يتبع ،

https://www.facebook.com/lam3at.zomorod
https://twitter.com/lam3atzomorod

لا أسوأ من أن تبحث عن شيء يُلهيك عن بؤس الحياة مدسوس في جيبك ، تكرر طقوسك في الامساك بالاشياء وتأملها ، تدسّها في جيبك مرة أخرى ، تبتعد بفكرك قليلا ، تعود لتبحث عنها وتنسى أنك فعلت ذلك عشرات المرات قبلها ، كمن يبحث في اللاشيء عن أي شيء ، يضيع كل مرة ، ويعود وداخله أمل ما أن يجد ما يستحق ،يقولها قيس لنفسه وهو يُقلب أوراقاً وجدها في محفظته آملاً ان تُصبح أخف وأقل ضجيجا ..أنا ما عاد يعنيني ما يحدث له ، هو حر ، بالأصل كل مشاكل هذا العالم لا تعنيني طالما أعجز عن حلها فلماذا إذا أرهق روحي بالتورط في الانشغال بها ولم أكن يوما السبب في حدوثها.. لـ.. ، يجد بين الاوراق أقصوصة صغيرة مكتوب عليها رقم منزل وبجانبه اسمه رشاد ، شرد قليلا ثم أخذ يجمع الاوراق على عجل ويضعها في جيبه ، "لا لا لن أفعل ذلك ، هذا سخف .."

^ ^ ^ ^ ^ ^

حزينة هي الحياة، لا أحد يبقى وفيًّا معها ويرافقها طيلة عمرها سوى الجمادات، حتى نحن ، حين نبحث في التفاصيل الصغيرة نجد أننا قد ننسى الأصوات ، الاشكال ، الحكايات ، لكننا ربما لا ننسى رائحة العطر حينها ، ولا كأس القهوة الابيض المكتوب عليه حرف ما او رسمة صغيرة في احدى زواياه ، قد ننسى المواقف ، لكن من الصعب ان ننسى الاماكن التي حدثت فيها ، يملؤنا الحنين او الوجع بمجرد ان نمر فيها ولو لصدفة ، وحدها الجمادات تعرف كيف تكون الثابت الوحيد الذي لا يتغير ، تعرف كيف تبقى في داخلنا دون أي صوت ، وليتنا نصبح مثلها . ربما هذا السبب هو ما دفعني لأن أحول سيارتي التي قدمها لي والدي في بداية دراستي الى تاكسي أجرة ، لم أستطع ان ابيعها او استبدلها او حتى ان اقدمها لغيري ، على الاقل كانت وفيّة لي أكثر مما أتخيل ، او ربما هكذا اعتقد وانا لم اجد من اعوامي العشرة الماضية احدا الى جانبي سواها ، هي وحدها تسكن كل الأيام الماضية ، وحدها لم ترفضني او تنكرني ، حتى حين غيرتُ هويتها لوهلة ، حتى حين تلاشى لونها الاسود اللامع ليتحول الى ابيض مصقول وكلمة صفراء تعلنها من ملكية خاصة الى أجرة يتلاقفها العابرون مقابل حفنة من المال . لم يسبق أن صرخت بوجهي حين ركلتها غضباً ، او نعتتني بالجنون حين أتحدث اليها كأنها شخص ما ليس هنا ، ومع هذا نغدو نحن المقصرين في حقها ، نحن من لا نعترف بمعروف ولا نقدم عزاء ولا تقديراً حين تقصر في واجبها لأنها أصبحت منهكة منا ومن الحياة ، ونحن لا نشعر..

لقد آمنت أن الصراخ لايجدي، ركل الحائط، قذف الأشياء تجاه الأرض ، او حتى مجرد الاهمال ..كم نبدو ضعفاء حين نُحمّل الجمادات ضريبة غضبنا ، رغم انها الأوفى !

^ ^ ^ ^ ^ ^

من سمية الى مذكراتها ..

الحادية عشرة والربع مساء من يوم الاربعاء الموافق ٥/٢٦

الى شخص غائب .. تمنيتُ لو أنك هنا ، ألا اخاطب الاوراق كأني أحادثك، لا أصعب من أن تمسك القلم وكأنك تمسك بيد من تفقد ، تربت عليها بشدة ، تنعي نفسك وتنعي الغياب ، تكتب ما في قلبك على ورقة وكأنك تُلقي بكلماتك الحائرة في قلبه ، ما يدفعني للكتابة هذا اليوم هو أنك لست هنا يا رشاد ، وهذا اليوم أثقل بتفاصيله من ألا احكيها لك - كأني أحكيها لك - فلربما أنام الليلة وقلبي يحمل شعوراً كاملا حول هذا اليوم الذي انتظرتُه من سبع سنوات ، أتعلم .. بشكل دوري، مكرر يجب أن تتخلص من الرسائل المؤرشفة في قلبك، الذكريات، الغائبون، وتفسح مساحة للحظة لتلهو في صدرك ، انا اليوم سعيدة انني صرتُ ما كنتَ تحلم به ، وصرتُ انا ما تأملته لأجلك ولأجل أمي ، حلمك الآن اكتمل ، لكني حلمي .. ناقص ، ناقص يا رشاد وانت لست فيه ، الصورة الجماعية التي تجمع المتخرجين واهلهم تنقصك ، الفرحة التي علت الوجوه اليوم بي تنقصك ، أصوات المهنئين والمباركين ينقصهم كلمة " مبروك يا سمية " منك أنت .

الآن يحق لي أن اتنفس الصعداء وانام بعيداً عن نوبات السهر ، على كل حال ما عدتُ أسعَى للحياه كَالسابِق ، وما عدتُ اريدُ أن أُدرك " ما الحياه؟ ، فقط أتمنى أن اعيشها كما يجب ، حتى لو كنتُ أجهل ماهيتها ، اليوم فقط أدركت ان الابتسامة الصادقة ليست من تلك الوجوه التي تفهم الحياة ، بل تلك التي تجهلها ، او حتى تتعمد تجاهلها

، ولأني لم أستطع ان أخفي توجسي من الغد ، ولم أقدر على أن أمحو شعور أن اطار الصورة سقط منه شخص ما .. كنتُ نصف مبتسمة بألم كامل ..!

نأخذُ وقتاً طويلاً في اختيارِ الأحذيه ، وننسى أنْ نختَار الطرِيق ! ، سبع سنوات تعلمت فيها كيف اختار حذائي وكيف ارتديه ، ما تبقى هو أن اعرف أي طريق أسلك حتى لا اندم على اختياري ، وهذه هي المرحلة الاصعب والاطول ..!

.. قبل أن اضع نقطة لهذه الرسالةلة التي لن تصلك وقبل أن أوقع في تحتها اسمي واعتراف بانني من كتبتها لمن لن يقرأ ، فقط أريدك أن تعلم ان هذه المرة الأخيرة التي سأكتب فيها لك، ليس لأنك لا تجيب، ليس لأنك بعيد، ليس لأني لا أعرفك، ولكن لأن صمتي لا يكتب. وصمتك لا يسمعني ، الافضل حينها هو الغياب !

سمية

^ ^ ^ ^ ^ ^

يرن الهاتف للمرة الرابعة ، تقبل سمية نحوه متضجرة من تجاهل الجميع له " ما في غيري يرد! ، ياربي لستُ سنترال هاتف هنا !"

تمسك سماعة الهاتف بغضب

"ألو .....وعليكم السلام .....نعم .. هذا بيت ام رشاد ... ماذا ؟!! رشاااد..."

يتبع ، ،

يرن الهاتف للمرة الرابعة ، تقبل سمية نحوه متضجرة من تجاهل الجميع له " ما في غيري يرد ! ، ياربي لستُ سنترال هاتف هنا !"

تمسك سماعة الهاتف بغضب

"ألو ......وعليكم السلام ......نعم .. هذا بيت ام رشاد ... ماذا ؟!! رشااد..."

- نعم ، أنا من طرف رشاد ، انا أحد اصدقائه الذين عادوا من هناك وقد حملني رسالة انه بخير ، وانه مستمر نحو هدفه فلا تقلقوا عليه

تكابد دموعها وتحاول ان يكون صوتها واضحا بعيدا عن غصته - وهل كان اصابه شيء طيلة تلك الفترة .. حتى .. لا يتصل بنا ...ظ.نناه ..قد م..ات

- ... هو بخير ، ... فقط لم يجد وسيلة الاتصال المناسبة حتى يطمئنكم عليه ، لقد عدتُ الى البلاد لان مهمتي هناك قد انتهت ، وقد اوصاني بان اعتني بكم كما لو انه موجود

- تعتني بنا ! ، ألن يعود ؟!، ...ولمَ لم يعد معك

- مهمته هناك لم تنته على ما أظن ، .. لكنه حملني تلك الأمانة .. ، سأتصل بكم بين فترة واخرى لأارى اذا ما كنتم تحتاجون لشيء ، لا تعتبروني غريبا .....، شردتْ سمية بدموعها بعيدة عما كان يقوله " ي الهي .. لم .. لم !!" .... حسنا ؟.. عذرا هل تسمعيني ؟

- هاا ، نعم حسنا ، باذن الله

- سوف أكون على تواصل مع الوالدة باذن الله كل اسبوع لاعلم ماذا تحتاجون واجلبه لكم حتى عتبة منزلكم ، ...اسمي ابو صلاح

- ... طيب .. شكرا لك أبو صلاح

- مع السلامة

" من على الهاتف يا سمية ؟!" تنادي أمها من المطبخ ، حاولت أن تمسح دموعها وهي تفكر بما تقولها لأمها ،ماذا لو كان هذا الرجل كاذباً ؟!، لم الآن بالذات ، أربع سنوات مضت والآن يتذكرنا في مرسوله مع غريب ؟،ماذا عسايَ أقول لأمي ، أخشى أن يصيبها شيء ما ، لكن ..هي لم تفقد الأمل يوماً بأن يعود ابنها من غربته المجهولة الاتجاه والمصير ، وكأنها قد رُبط بين نبضيهما بوثاق لا يذوب مع المسافات ..

أأعطيها الأمل بعودته ؟ أم أصمت حتى يبقى هذا الظن حقيقة ، بقدر ما أشعر أن شيئا مثل هذا قد يضيء قلبها المنطفيء منذ اعوام بقدر ما أخشى أن أعلو بأملها نحو السماء لنكتشف بأنه ما كان الا وهم .. فتعود الحياة ليلاً لا ينتهي ، وعزاءً لا يعرف نسيان ..

اقبلت نحو باب المطبخ بهدوء وأمها منشغلة بالتقطيع والترتيب مولية ظهرها لها

☐ ماذا هناك ي سمية ، من كان على الهاتف ؟

- .... مممم كان رجلاً ي أمي

- رجل ؟!، هل أخطأ الرقم !

- لا .. بل كان يقصدنا بالتحديد

تلتفتُ أمها نحوها تنظر الى عينها - ماذا يريد؟!

استندت سمية نحو طرف الباب ويديها خلف ظهرها - أتعلمين ي أمي .. كثيراً ما كنتُ أستيقظ من نومي في آخر الليل لأمُر على غرفتك ، أتعجب حين أراك على سجادتك تدعين ، لم يكن الغريب هو دعائك .. ولا سهرك ولا صبرك ، الغريب أن أول الاسماء التي أسمع صداها كان اسم اخي ، أخي الذي لا نعرف له مكان ولا عنوان ولا حتى أي قبس يشير ان كان حياً او...، لم أكن أعلم ي أمي من أين لك بهذا الامل طيلة تلك السنين ، ونحن نعلم جميعاً أن المكان الذي ذهب إليه سيكون معجزة ان عاد منه على قدميه .. ان عاد أصلا ! . نسيت متى أخر مرة وصلتني رسالة قصيرة منه ، نسيتُ متى أخر مرة كتبت رسالة قصيرة اليه .. حتى يئست من حروفي ومن عودته ..أمل تشعري بهذا أيضاً ؟!

- سمية .. الحياة ستُعلمك كيف تكتبين الرسائل ولا تصل ، كيف ستنادين على الكثيرين حتى يجف صوتك ولن تحمل الدورب ظلالهم اليك ، ستعلقين زهرة أمل في كلمة منهم ، وعلى يديهم وحدهم ستتعلمين الخرس ! ، أنا فعلتُ ذلك كثيراً وضعتُ مني وضاع الكثير .. سمية ..اتّصلي بالله دائمًا ، هو الوحيد سبحانه ، الذي ينتظر اتّصالك ، ليرد عليك بسرعة ، ويُعطيك حاجتك ، ولا يؤخّرك ، هو وحده الذي لن تضيع رسالتك مهما طال عليها الرد ، هو وحده الذي يأنس بصوتك ان قلتِ يارب .. وحده من يسمعك حتى ان لم تتكلمي !. الصباحات الجيدة ، هي التي ننتظر فيها

مساءات جميلة !..ولن نرى جمال المساء رغم عتمته ما لك نكن نحسن الظن بمن له مُلك ليله ونهاره ..

أنا فقط ي سمية تعلمتُ من والدي إن خفتُ على شيء أن استودعه الله ، ذاك ما فعلته حين ضممتُ رشاد وهو يودعني ، أن أُودع الأمانة لم هو ءآمن عليها من سواه ، ببساطة استودعتُ الملك للمالك ، فهل يضيع يا سمية ..؟!

- لكننا بشر ي أمي ، أضعف من أن نفكر بهذه المثالية ، بأن نرمي كل الهموم خلفنا ونكمل حياتنا ، أوهن من نسير بظهر مكسور مثقل بالغائبين والتائهين !

- لو انك عرفتِ كيف تسندين ظهرك لمن يجبر الكسر لما انحنيت أبداً .. كله خير يا حبيبتي ..، كله خير ..

- ... يبدو أن المتصل ي أمي هو رد الرسالة التي تبعثينها كل يوم الى السماء ..

- ... من ؟

- رجل ي أمي يُدعي أبو صلاح .. من طرف رشاد ..

انهمرت دموع الأم بدون أي ردة فعل على ملامحها وهي تستمع لسمية .. يقول انه بخير وانه لم يجد طيلة تلك المدة من يوصل رسالته الينا ولا أي وسيلة اتصال مناسبة ، يقول أنه لم تنتهي مهمته بعد هناك .. وأنه مرسل منه لكي يعتني بأمورنا وما نحتاج ..سيتصل

بكِ كل اسبوع ليجلب حاجيتنا حتى عتبة الباب كما قال ..قال اشياء أخرى لكنني لا أذكرها ..

ضمتْ سمية أمها وأخذت تشاركها الدموع وهي شبه مصدومة ..

يبدو أن رسالتك قد وصلت ي أمي .. وصلت ..!

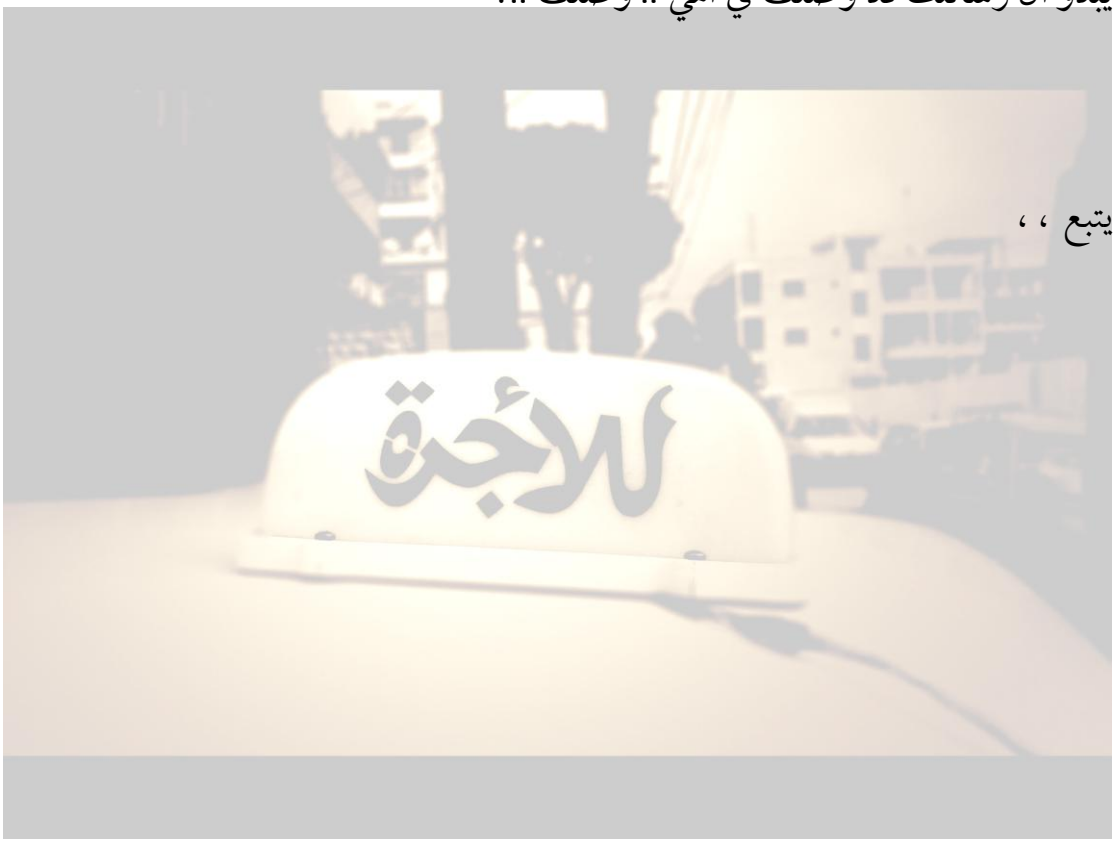

يتبع ، ،

"ألو.. من معي .."

" ماهذا الذي تفعله يا قيس ؟!

" من ؟.. رشاد ..

" نعم .. رشاد يا قيس .. هل لك أن تخبرني لمَ فعلت ذلك !

"أهدأ أولاً وأخبرني ماذا فعلت ، لستُ اذكر

"لا تذكر ! ، أريد أن أفهم ما الذي دفعك لتتصل بمنزلنا وتدّعي أنك من طرفي أيها

❖❖❖

"لماذا السب الآن ، ثم وما الذي يُضايقك بالأمر ، شخص ما على الأقل يطمئن عليهم ويُلبي لهم ما يحتاجونه ، حتى يعود فارسهم المفقود

"من الذي سمح لك بأن تعطيهم الأمل بذلك ، من قال أني سأعود ..، هذه عائلتي يا قيس ولن أسمح لك بالاقتراب منهم

" ومادمت تقتنص دور الميت الذي لن يعود فلم الغضب ، ثم إني لم ولن أدخل المنزل مهما ، كل اسبوع اضع لهم ما تطلبه أمك مني عند عتبة الباب واتصل بهم بعد أن اكون قد ابتعدت حتى لا يراني أحد ، أفعل ذلك لأجلهم وليس لأجلك ....ثم من أخبرك بذلك ؟

" شيء كهذا لا يفوتني أيها الدكتور المغمور ، هه ،أعجبتني فكرة الكمامات التي تضعها على فمك لتُغير من صوتك ، أفكار الاطباء الشاذجة

"ما الذي تُحاول أن تصل اليه ؟! ، أنت لست ميت حتى ان لم تعد لهم ، قد أصبحتُ في الصورة وانتهى الأمر شئتَ أم أبيتْ ، لا أعتقد أنني أن (أبوصلاح) سيبتعد حتى يأتي (رشاد)

"أها .. تضغط عليّ لأعود ، على الاقل يا دكتور قيس قبل أن تبحث عني وعن عائلتي اذهب وابحث عن عائلتك التي حطمت أحلامهم لتصبح عامل أجرة يجوب الشوارع كالمتسولين

".... أولاً تكررت كلمة دكتور في كلامك كثيراً هذه المرة ، قد بعتُ هذه الألقاب حالياً حتى أشترى شيئا من ضميري ، ثانيا ، تعلم أني كنتُ واضحاً معهم من البداية ، لم أهرب نحو المجهول وأرسم لعيونهم وهم خيال وأرحل مثلك ..

"ستبتعد عنهم يا قيس ولو على جثتك

"ما يحلو لك أفعله .. عن اذنك لدي مشوار يجب أن انهيه ... مع السلامة

"انتـ .....

^ ^ ^ ^ ^ ^

الذين فعلوا أشياء عظيمة في الحياة. والذين لم يفعلوا شيئا. جميعهم ظنّوا أنهم يعيشون حياتهم بأفضل طريقة ممكنة، لا يهم أين يكون مكاني من الصواب أو الخطأ ، ما دمت مقتنعا بما تئول اليه الامور ،حسب قراراتي فانا في الطريق الصحيح أيا كان الهدف الذي أسير نحوه ، فالندم هو الوحش الذي يقضم أصابعنا كلما حاولنا ان نربت على كتف التعب فينا ، وأكره ان اشعر بالادانة أمام نفسي ، حينها تصبح المرآة مشوهة مهما كانت براقة، وتُصبح ملامحي مقفرة مهما كان الجو صحواً!

أحلامنا التي أهدرنا ماضي العمر في نسجها ، حين تتحقق تكون أصغر من مقاس عمرنا ، أحلامنا لا تنمو وانتظارنا وحده من يمتد. أدرك ألم ذلك ، وأعلم ما كانت تشعر به أم رشاد واخوته ، قررت في لحظة ما أن أقطع صبرهم بظل قادم من بعيد ، القادم الذي ينتظرونه منذ سنين ولا يأتي ، حتى لو كان وهماً ، على الأقل تتبدد سحابة اليأس من أفقهم ، أن تنتظر دونما حد أشد مرارة من واقع تراه حتى لو كان سراب ..ربما ما فعلته كان خاطئا بشكل ما.. وماذا لو كان خاطئا ؟ أحيانا أن نجازف بجنون مرتكبين خطأً ما هو افضل صواب يمكن ان نرتكبه!

شعوري الداخلي بالذنب نحو اهلي أظنه سبب محاولة عدم تكرار الخيبة لأهل رشاد ، لا أحد فينا يُدرك معنى أن يحبك شخص دون أن يؤذيك لمرة واحدة ، مرة واحدة تبرر لك التقصير في بث الفرح في صدره ، أنا لا افهم أيضاً وأكرهني ، ما كنتُ أتمنى أن اكون سبباً لحزن قد يُخالج صدر أمي او يتنفسه أبي بعمق حين يتذكر ابنه الذي تعب له ولم يُفلح بنتيجة ، لكنني لم أستطع أن أكمل حياتي برهن ارضاء الآخرين وانا عليّ ساخط ، مثيرة للشفقة تلك الألقاب والأسماء التي نحملها ولا تحملنا ، تروّض الغرور فينا لكنها على الارض لا تُثمر ، ان كان الكل يريد مني اسمي المزخرف بدال ونقطة لمجرد اسم وحفنة مال فهو لهم ، دعوهم يأخذوه مني ، خذوا اسمي ، فقد اكتشفت أني لست بحاجته ، على الأقل الناس دائما يستخدمونه أكثر مني وكأنه لهم !. آلمني عندما قالها رشاد لي محاولاً استفزازي ، لن يزعجني لو كان قد فهمني خطأ ، فهذا هو المتوقع

غالب الحين من الآخرين ، المزعج أنه فهمني بشكل صحيح ، فشعرت أنني مكشوف في زمن يعلمنا أن نراوغ ، ان نقول الكلمة ونحن نقصد بها لكمة !

الكلام الذي أردده على نفسي صار مألوفا وفقد دهشته ، بتُّ بحاجة لأن أسرق كلام الصامتين وأرفع عنه حجاب كبته ، أن اعبر عما بداخلي بطريقة مختلفة غير الحديث للطرقات و تلوين الأرصفة بالحكايات البالية ، بقايا الكلام في فمي سبب هذا التسوس في أسناني ، وجعي الذي كتمته جفف شفتي ، صوت ضحكتي وحده من يرسم نصف دائرة مشعة في جمود الملامح ، وحده من يجبر المعاني الناقصة ، وحده من يجبر خطأ عمري المطبعي !

كهذا التاكسي .. لا أريد العودة للوراء ، أريد فقط أن ترافقني الأشياء الجميلة التي حدثت في الماضي ، وأن أحملها لأجل الآخرين ..وحسب !

^ ^ ^ ^ ^ ^

فتحتُ عيناً واحدة أتأمل الساعة وازعاج الهاتف ، قمتُ بالرد دون أن أدقق في اسم المتصل

"ألو ..

" مشوار آخر الى مستشفى خارج المدينة ، فاضي على الساعة السادسة مساء غدا !؟

" وعليكم السلام ..!!

"أه ، أعتذر سيدي ، لكني على عجلة من أمري

" بغض النظر عن الوقت الغير مناسب للاتصال ونحن منتصف الليل ، وبغض النظر عن اني للمرة الثالثة أكررها(لست سيدي) ، حسنا سأكون لديكِ في الموعد ..فنحن تحت أمر الزبائن

" أعتذر مرة أخرى ، لكنني لم أجد من يُوصلني الى هناك ولا أعرف حاليا رقما أذكر صاحبه سواك ، آسفة

" لا بأس ، لذلك قد اخترعوا التاكسي بأي حال ، من المنزل الى المشفى أم العكس ؟!

"لا بل من المنزل ، سأرسل لك وصفه في رسالة نصية ..

"جيد ، سأكون هناك على الموعد باذن الله

" شكرا لك ، مع السلامة

أغلقتُ الهاتف بنصف وعي ونصف عين ، أومَض الهاتف مجدداً منبئاً عن رسالة جديدة ، فتحتها وأخذت أقرأ العنوان ، لوهلة خفق قلبي بسرعة كأن أحدهم ضربني عليه بمطرقة ، أشعلتُ اضاءة الغرفة وفركتُ عيني أحاول استيعاب المكتوب ، عدتُ لسجلات المكالمات الواردة احاول ان اتأكد من أن المتصل كانت الدكتورة سمية ، العنوان هو ذاته عنوان رشاد ، نفس الحي ، الشارع ، وحتى الوصف لمكان البيت ولونه القديم البني ، هم الأشخاص الذين التقيتهم من قبل ، لكن يعودون إليّ فجأة بأشكال متغيرة. تتورط الذاكرة بي واتورط بها ، أدرك فداحة ما أنا به ولم أدركه ، كان كل شيء أفضل لو أن الحياة توقفت عند الرقم اثنين ، طرفين للمعادلة ، رشاد وقيس ، حكاية تنتهي بفوز احدهما وخسارة الآخر ، أو على الاقل توازن يليق بكبرياء المنطق . الانشطار يبدأ عندما يتمدد القدر ويحضر في الحياة شيء يدعى الرقم : ثلاثة.. ، شخص يُخبرك أنك تحتاج أكثر من الذكاء لتتوقع تورطك به ، لتعيد المعادلة رابحة وهو خارجها ..لكن ، مهما كنتَ بارعاً حينها ستكون أنت الخاسر الوحيد .. خارج القسمة .. وخارج النصيب أيضا !

يتبع ، ،

"صامت هذه المرة !!"

" بل مصمت ، ممم ربما تُشغلني بعض الأمور لا أكثر ، والكثيرون شكوا من ثرثرتي ، فقررت الصمت ، مجرد تغيير "

" ليس من عادة المتحدثين يا سيدي أن يصمتوا بسهولة ، الا اذا كان ثمة كلام عالق في حناجرهم يخشون أن يغتصوا به !

ينظر لها من المرآة الامامية ، لاحظت أنه قد غضب لأنه لا ينظر الا للطريق حين يتحدث بالعادة

" أعتذر ، هي عادتي أن أخاطب الغرباء بكلمة سيدي كما قلت لك ، ولا أفهم سر غضبك ، هي احترام وليست شيئا سيئا على أي حال !!

" أكره كثرة الاعتذارات التي تدور حول نفس الأمر ، من الخطأ أن نجعل العبد سيداً ، هو حتى لا يملك من سادة نفسه شيء ، تقتلني الألقاب الفارغة والأسماء الخالية الا من تكبير الرؤوس و جعل السفيه عظيماً !

" هل هذا احتقار لذاتك ؟ لا أحد يرفض أن يحترمه أحد ، الكل يحب أن يكون له خطوط حمراء لا يتعداها ، نصف مشاكلنا حين يغيب الاحترام فتخيب الظنون وتُساء التصرفات

" أنا واقعي لا أكثر ، أمي لم تذق ألم الموت لتنجبني وتختار لي اسماً لأكون بغيره ! ، الانسان من يصنع اسمه يا دكتورة لا هي من تصنعه ، من يعتقد أن اسمه هو الذي يجعل منه شيئا فهو لا شيء

" أكيد ، ...أراك تكلمت ، كلمة سيدي كانت مفيدة لتبتلع غصة الصمت

" الكلام أحياناً غصة أخرى !

"عرفتُ غضبك من طريقتك في النظر بالمرآة نحوي ، خصوصاً انك لا تضعها في اتجاهها الصحيح

" اعتدت أن اسمع الناس لا أن اراقبهم ، اترك لهم حرية الحديث دون أن تفضحهم عيونهم ، عيونهم الساهرة في الصباح ، كثرة التفكير ، المرض ، القلق ، او حتى الشرود ؛ أشياء بسيطة تجعل الانسان واضحاً أكثر مما يتخيل .لكن الصوت أحيانا يُرينا حقائق أخرى ، نحتاج أن نترك زيف الاقنعة جانباً لتحيك موجات الحياة نبرتهم الحقيقة ، ثم انني أيضا أفعل هذا ذوقياً حتى لا أضايق الراكب معي ، تكفيني المرآتين الجانبيتين لأراقب الطريق

" جيد ، حتى لا تلقى أي نقد ممن حولك

" تلك الأشياء التي نتجاهلها عمداً من الناس ونغض النظر عنها ؛ هي التي ستقصم ظهورنا في النهاية ، وأخشى أن انفجر ذات مرة في راكب ما ، لذا أرجوك يا دكتورة لا تكرري تلك الكلمة السادية حتى لا تكوني أول الضحايا وتؤذينني في عملي !

تبتلع ريقها وهي متوجسة خيفة مما تسمع ، تشك للحظة بقواه العقلية ، تحادث نفسها أن هذه آخر مرة عليها أن تركب فيها معه ، وكان من الأفضل لو انها لم تتحدث ..

" هذه الشمس التي تتوسط السماء مُلهمة ؛ تغيب وتعود عودة المنتصر ، شامخة للحد الذي لا تستطيع أعيننا أن تُحدّق بها طويلاً ، ومع ذلك العاقل فينا لم يعبدها ، لم يجعلها سيداً ، ولم يجعل منها الا مصدر حياة واحتياج ما ، مهما غابت فهو لا يتوسل لها .. ، أعلم أن الامر فلسفة كبيرة ، لكن اعذري من اضنته الحياة بالألقاب ، باسماء وأنساب مشوهه ، تؤول بالناس الى فعل خارج عن معانى الاعراب ، عبيد للأسماء نحن ، وليتنا نتحرر منها

" ....ربما ، أنا ممن يعتقدون أن اسمهم قدر ويتعايشون معه ، حينما أتضجر منه أعلم أنه مثل وجهي لا أملك أن أغيره. فأحبه من جديد . لا عيب أن نصنع لنا أسماء ، المهم أن نشبهها في شيء من جمالها

" وماذا عن الألقاب؟! مهندس ، طبيب ، الاستاذ الدكتور الاستشاري .. وألف اسم قبل اسمه ..

ماذا عن اسم العائلة ، والقبيلة ، ونسب سابع جد ، أصيل ام مختلط ..

ماذا عن كل هذا ، هل من السهل أن نتعايش معه ! ، ومن منا يختار اسمه او أهله من قائمة المفضلة قبل أن يولد ؟!!

"هي تحدد مقامات الناس ، ما من ضرر في ذلك

" ولماذا تختار الفتاة زوجها بناء على العائلة والنسب قبل حتى أن يعرفوا الشخص نفسه ، أوليس من المحتمل أن يكون عكسهم تماما !

" طبعاً ، لكن هذا هو المجتمع ، ترتبط العائلات رفيعة المستوى ببعضها ، يصير التكافؤ علميا و اجتماعيا وثقافيا ، لا يمكن لشخص من عائلة فقيرة أن يُناسب عائلة راقية ، لن يكون مثلهم أبداً

" وهل الرقي بالمال ؟! من قال ؟

" لا أحد يملك تغيير هذه الثوابت ، وكل من حاول باء بالفشل

" ربما نحن من نُفشلها لا هي من تُفشلنا ، كم من مرة طرأ على بالنا شخص ونسينا اسمه ، لكننا لم ننسى جميل صنعه ولا نبل أخلاقه ، كم من شخص كان الجميع لا ينادونه باسمه (مجرداً) حتى لا يتجردوا من كرامتهم بسبب ذلك ، واكتشفوا فيما بعد أنه يقبّل حذاء أسياد مصلحته ! ، كم من شخص من نسل آل الذين لا يتكررون ، وهو كالآخرين مكرر في أكله وشربه ونومه ، فضلة زائدة بلا تعريف !

" صحيح ، لكن لا تنفعل هكذا حتى نصل بسلام

..أعلم أنك ربما على حافة خيبة ما ، أظافر الحرمان تخربش أحلامك، والأيام الجميلة تركتك للأيام القاتمة، والمجتمع بظلمه لا يرحم وأعلم ، لكن رغم ذلك لا بدّ أن تبتسم لأنك لم تمت بعد ، لديك فرصة لتتحدى كل العقبات

" سأسألك سؤالاً ، ماذا لو اني كسائق تاكسي او غيري حاول أن يكمل تعليمه ، أن يصعد على وجه الأرض مجدداً في وجهة نظر الناس ، أن يختار لأول مرة طريقه بنفسه ، لا ما يمليه عليه زبائنه ، وصار كما يحلم ، ذا مال واسم ومكانه ، وحرف واحد من حروف الهجاء يسبق اسمه يرفعه ألف ميل عن وجه الاسماء المجهولة ، حاول أن ينتسب لعائلة ممن تحدثتي عنهم ، كيف ستكون ردة فعلهم ..؟!

" ممم ، لاأعلم .. لكن ماضيه سيشوبه بالتأكيد ، لن ينسى الناس أنه كان سائقاً معدوماً

" ما أعجبنا !، لا نُحاكم المرء الا على ماضيه مهما حاول أن ينسى سوأته ويغدو أفضل ، ولا نعتبر الا بزهو الماضي مهما كان الذي أمامنا أسوأ ، تباً للماضي و لنا

" إلام تحاول أن تصل ؟!

" .... لا تقولي لي سيدي مرة أخرى !!

رن هاتف قيس حينها ، نظر الى الرقم ملياً ، رشاد هو المتصل ، خشي أن يكون شجار آخر لا طائل له به ، ليس وقته ولا مكانه ، تشابه الأسماء محتمل لدى الجميع ، لكن بالنسبة لها سيكون ملفتاً مهما كانت شاردة ، فهو كجرح مفتوح ينزف من أي حركة ، أي كلمة تُطابق هوية أخيها قد تصبح مشكلة لا عزاء لها ، لاوقت فيها الا أن تكون صريحاً جدا ، او وقحاً جدا! . بدأ يُحادث لبضع ثواني قيسٌ نفسَه والهاتف في رناته مستمر ٌ لم يهن عليّ ، لذلك أنا متورط معه ومع أهله ، لكنني ربما هنتُ عليه حين

حاولت أن اقتحم حصنه المهترئ في محاولةٍ لترميمه ، عادي تهون العشرة ياخي. اللي كان بيني وبينه عيش وملح ، جاه الضغط وريقه بَحْ! ، عاادي ...ْ

قاطعتْ صوت زحامه الداخلي

" عذرا ، هلا رددت او وضعته على الصامت ، رنته مزعجة ، أو انك تنتظر حتى أنزل ...!

انقطع صوت الهاتف لوهلة ، بعدها وصلته رسالة غير مكتملة الكلمات كأن من كتبها رتبها على عجل ، كانت من رشاد أيضاً ، طلب منه أن يحضر الى الطريق الشمالي خارج المدينة ، ينزف ، انقلبت به السيارة وخرج منها بصعوبة ، الطريق مهجور ولن تصله مساعدة بالوقت المناسب ..

توقف قيس على جانب الطريق فجأة

شعرتْ سمية بالقلق وهي تلمح اضطرابه وتغير ملامحه " أهناك خطب ما ؟ هل تُعاني مشكلة ؟

" مستعجلة أنتِ ، أليس كذلك

" نوعاً ما ، لكن ان كنتَ مريض أستطيع أن استقل سيارة أجرة أخرى

رفع رأسه نحو المرآة ينظر اليها

" سمية ، رشاد الآن يحتاجك حقا .. أو لن تريه مجدداً

يتبع ، ،

https://www.facebook.com/lam3at.zomorod
https://twitter.com/lam3atzomorod

#

توقف قيس على جانب الطريق فجأة

شعرتْ سمية بالقلق وهي تلمح اضطرابه وتغير ملامحه " أهناك خطب ما ؟ هل تُعاني مشكلة ؟

" مستعجلة أنتِ ، أليس كذلك

" نوعاً ما ، لكن ان كنتَ مريض أستطيع أن استقل سيارة أجرة أخرى

رفع رأسه نحو المرآة ينظر اليها

" سمية ، رشاد الآن يحتاجك حقا .. أو لن تريه مجدداً

صمتت لبضع ثوان تحاول أن تفهم ما سمعت "ماذا ، من رشاد هذا ؟!

"أليس أخوك يُدعي رشاد ؟!

".... بلى ، لكن ... كيف عرفت ؟ هل تعرفه

" لا وقت لدينا لأتكلم كثيراً ، يجب أن نسرع إليه ، يحتاج الى المساعدة

" انتظر ، لن اسمح لك أن تذهب بي الى مكان لستُ أعرفه وانا اسمع منك هذه الكلمات المتقاطعة ، ماذا تريد ؟!

" دكتورة سمية ، أرجوكِ اهدئي ، أخوك رشاد كان من المفترض أنه سافر منذ أربع سنوات للجهاد كما أخبركم ، هو لم يفعل ، لم يُغادر البلاد للحظة ، كل ما فعله أنه اصبح في حياتكم مجرد ذكرى بارادته

" ماذا !!، وكيف لي أن أصدقك ، أأصدقك وأكذب غيابه !، ومن أين لك بمعرفته ؟

" دكتوورة أرجوكِ ، سأخبركِ بكل التفاصيل ونحن على الطريق ، أخاك اخبرني أنه أصيب في حادث بطريق خارج المدينة ويحتاج أن يُنقل للمشفى ، علينا ان نذهب له سريعا ، وان كنتِ تخشين أني أكذب فهذه محفظتي وهاتفي ، هي لك حتى نصل اليه ، المهم أن نتعجل

كانت كمية ما ألقي على عقل سمية من الوقائع أكبر من أن تتصوره ، كانت تُفكر وترد بشكل يشبه حاسوب صخر من حقبة الثمانينيات ، حائرة بين تناقض ما تعرفه و توازي ما يُكشف اليها ، لا يلتقي أي منها في منطق واحد ، غارقة على حافة قرار يجب أن تتخذه سريعاً ، اما أن تُصدق قيس وتضع به ثقتها في الحفاظ عليها وانقاذ حياة اخيها الذي يدعي أنه يعرفه وانه في خطر ، او تكذّب كل كلامه وتجبره على اكمال الطريق نحو المشفى ، وتجاهل كل تلك الترهات لتكون تلك آخر مرة تركب معه..

" أنا آسف حقاً ان كنتُ قد قلت ما لا يُناسب ، ان كنتي ترفضين ان نذهب سوية لرشاد يمكنني ان انزلك سريعا مع سائق اجرة آخر واذهب اليه على الفور ، لكن ارشديني لأقرب مشفى ، او كيف أتعامل مع جراحه ان كنتُ سأتأخر في ايصاله ، أنا لا أريد أن اكون عبئا على أحد ، ولا متورطاً بمشكلة بسببي ، فكرة الموت فكرة مرعبة حقاً ، تهزّ كل خلية فيّ ، ولن أسمح بأن أكون جزئا منها يوماً لأحد ، أرجوكي قرري بسرعة ، كل لحظة فارقة

مدت يديها نحوه وهي تتنفس الصعداء وكأنها على حافة جبل تنوي القفز منه في حركة جنونية

" ناولني اذا محفظتك وهاتفك وبسرعة نحو مكان رشاد

وضعهما على المسند بين الكرسيين الأمامين من خلف ظهره ، فألتقطتهما سمية ووضعتهما في وسط حقيبتها ..

انطلق حينها قيس بسرعة نحو شمال المدينة متجهاً لآخر طريق فيها ، أخذ يسير لمسافة لم تكن طويلة ، لكن شعوره أن كل لحظة ستكون فارقة في حياة شخص جعلتها مسافة شهر بين مدينة وأخرى . اتخذ الجهة اليمنى من الطريق نحو جانبه حتى يتمكن من ملاحظه سيارة رشاد والتي كان يعرفها بلونها الازرق وصغر حجمها ، يبحث عن سيارة مقلوبة او أي اثر لدماء قد تكون مرشدا لمكانه ان كان بعيدا عن الطريق ، أخذ يسير وعيناه تلمحان كل التفاصيل رغم صعوبة الرؤية في عتمة الليل وقلة الضوء والعابرين.. فجأة ، يرى في بقعة ترابية اضاءة خافتة لسيارة ما ، حاول أن يقترب منها بهدوء حتى يتمكن من التعرف على تفاصيلها ، وحين اقترب ، كانت سيارة رشاد بالفعل ، بدت بحالة جيدة وكأنها وقفت هناك بطريقة طبيعية ..لا إثر حادث ما ، أخذت عيناه تبحثان عن رشاد حولها او داخلها ، لكنّ عتمة الليل كانت أشد من أن يراه ، خشي أن ينزل من السيارة ويترك سمية بها قبل أن يتأكد من مكان رشاد ، طلب منها أن

تعطيه هاتفه حتى يقوم بالاتصال به ربما يرد عليه ، قامت بادخال يديها في حقيبتها لتخرج الهاتف ، ناولته اياه فقام بالاتصال على رشاد ،في عتمة الليل تلك أضاء هاتف داخل السيارة ، وكانت حركته تشير الى أن رشاد يمسكه بيديه بطريقة طبيعية وهو يتفقد المتصل ، كانت الاضاءة منعكسة على ملامح وجهه ، نظر اليه قيس بتمعن فلاحظ انه غير مصاب باي كدمة او أي لون داكن يُشير لنزيف ما ، أما سمية ، فكانت تترقب بتوجس من بعيد ملامح ذلك الغائب ، تحاول ان تتعرف على من غاب عنها كثيراً حتى بدا أنه قابل للمحو من ذاكرتها حين نسيان ، " انتظري هنا .. ساتفقد الامر ، لا تخرجي فالظلمة شديدة "

قالها وهو يُشعل أضواء السيارة على أعلى درجة بها ، توجه نحو سيارة رشاد ، حين رآه ، خرج هو الآخر من سيارته وعينيه لم تفارقا حركة قيس نحوه ، نظر بحركة خاطفة نحو سيارة الاجرة ليُلاحظ بها أخته !

" رشاد ، أأنت بخير ، لا يبدو أنك مصاب بأي شي ء ، هل الامور على ما يرام !

" بخير ، لا تقلق ، ماذا تفعل أختي معك

"أنت تعلم أنها تذهب لعملها ، وتعلم أيضاً أنها تتواصل معي من أجل ايصالها ، وربما تعلم كذلك أنها قادمة معي الى هنا ، توقعنا أنك في حالة خطرة ، وكانت مساعدتها لازمة لهذا الامر ، أظنك تعرف كل هذا ، ولهذا كذبت أيضا على ما أظن !!

أكمل قيس كلامه بغضب

" أتعلم خطورة أن آتي الى هنا في هذه الظلمة وهذا الطريق المظلم ، والاشد خطراً أن تكون اختك معي ، ألا تخشى عليها !

" وهل كنتَ حقاً تخشى عليّ يا قيس ! ، أظنك جئت لتشهد موتي وتبتسم

" ماذا تقول ! ، بربك وما الذي كان بيننا لهذه الدرجة حتى أفرح لأذيتك ، أنا لا أغضب ولا أعتب ولا أهتم الا لمن يعنيني أمرهم حقاً

" أولستُ غريباً كما قلتْ ؟!ألا تذكر

" كنتَ كذلك.. حتى تورطتُ معك

" أنت من تعمدت ذلك ، لم أجبرك على شيء ، كنتَ تحاول أن تداوي خيبة أهلك بفرحة تصنعها لأحد ما ، لم تكن تعي مع من تورطتْ !

كانت تنصت سمية لهما و عينيها لم تفارقان ملامح رشاد ، تُحاول أن تطابق بين ما ترى ومن كانت تعرف ، الصوت هو نفسه ، وأسلوب السخرية الساذجة ذاته ، حتى ملامحه لم يتغير فيها الا لحيته التي بدت أطول وأقل ترتيباً ، لم تكن أي من ذلك دلالة انه كان يحارب او يناضل في سبيل قضية ما ، يبدو أنه طيلة تلك الفترة كانت قضيته (لا قضية) ، وها هو يستميت للدفاع عنها وكأنها ما خُلق لأجله ..!

" اذاً هيا ، برر موقفك ، وكل قصتك الزائفة لسمية ، وأعتقد أن قصتي باتت واضحة لها

" ولماذا أتيت بنا الى هنا ، أكان الامر يحتاج كل هذا !

"هنا مكان مناسب لتتضح الكثير من الامور في عتمة هذا الليل ، حتى تفضحنا اصواتنا ولا تستطيع ملامحنا أن تكذب ، حتى لا يكون لك يوماً ما عليّ أية ورقة رابحة تُرديني أرضاً بها ..

يُشير رشاد لقيس نحو سمية ، يتحرك امامه متجها لبابها ، يقترب بهدوء منها ، يستند بيديه على حافة النافذه

"كيف حالك يا سمية ؟! لا اعتقد أنك نسيتي أخاك .. أليس كذلك ، لكم حظ خبأه القدر لك بأن أعود لكم مجددا ، لا تغضبي مني كثيراً ، فأنا أعلم أنك طيبة

لم ترد عليه ، كانت تنظر نحوعينيه بسكون وهي حانقة ، في عينها بدايات دموع أجبرتها على ألا تخرج ، كانت تشعر برداءة موقف مزيف هي أول المستغفلين فيه ، كل شيء كاذب ومهدر ..

" دعيني أولاً أعرفك على الرجل الشهم (أبو صلاح) الذي لم يترككم لشهور وهو يطمئنكم عليّ ..انه هذا الشخص الذي يقف خلفي ..

..الدكتور قيس ..

يتبع ، ،

كانت تنظر اليه ودموعها تملئ وجهها ، ما كنت تشعر الا بزيف كل ما يحيط بها ، فجأة صار بالنسبة لها كل شيء استفهام لا جواب له ..

"دعيني اعرفك على الرجل الشهم (ابو صلاح) ، الذي اعتنى بكم طيلة تلك الفترة وكان يبطمئنكم عليّ ، انه هذا الرجل الذي يقف خلفي. .. د. قيس

لم تسمح دموعها لها بان تنظر لملامح قيس حينها ، أجابت

" ومن اين اتى هذا اللقب الذي تضيفه لاسمه ، ام تسخر !

" أبداً ، هو حقا طبيب ، أقصد كان طبيب اسسنان يوماً ما ، لكنه عرف قيمة نفسه فترك كل هذا واختار ما يليق بمقامه. . سائق !

" وما الذي دفعه الى ان يكذب علينا ، ولماذا... لماذا انت ابتعدت ، ما الذي حملك على ان تقسو بقلبك لتُيوت في اعيننا كل جميل دونك ، ونموت كل يوم ونحن ننتظر من لا

يأتي ، أي قلب تحمل ، انهارت سمية حينها في البكاء ، تحاول يداها أن تخفي وجهها ، لكن ألمها كان أوضح من أن يخبئه شيء ، تحاول ان تكتم بحة صوتها ، لكن صوتها كان يكسر سكون ذلك المكان البعيد. كان قيس يُراقبها بصمت من وراء رشاد ، كان يشعر بضيم هذا الموقف الذي باتت فيه بين لحظة وأخرى .. دون أي سابق تمهيد ، قسوة معنى ان تجد كل ما يحيط بك وَهم زائف ، حياة.. الاعمى الوحيد فيها هو انت ، رغم انك تظن انك اذكى المبصريين وأبصرهم ! ، حاول حينها أن يستدرك الخطأ الذي شارك برسمه. ربت على كتف رشاد وقال "اهدئي يا دكتورة ، الامر الآن بخير ، هاهو اخوك قد عادإليكم بكل حال ، وجبر الله كسركم بعودته ، هو اخطأ . لكن ربما كانت ظروفه أقوى منه في ذلك ..

التفت رشاد نحوه " لماذا انت هنا الى الآن ، ألا ترى انها امور عائلية لا شأن لك بها ، يكفي ما تسببت به من ألم

تجاهله قيس واردف " اما عن انتحال شخصية وهمية فكانت محاولة لمساعدتكم لا اكثر ، كان يؤلمني شعور ألم على موت عزيز وهو ما زال حي يرزق ! ، حاولت ان اعيد لكم الامل حتى يعود صاحب الشأن. . في الواقع لم اكن أعرف انك اخته ، لكن هدفي كان واضحا من البداية ، وصدقيني لم احاول ان اتسبب باي مشكلة حتى لو كان اسلوبي في حلّها خاطئا ، امسك رشاد بقميصه " ألا تفهم ! ، ارحل من هنا ، عد من حيث اتيت ، الى مكانك الذي يليق بك ، ودعنا وشأننا ، الا تفهم !

امسك بيديه وابعدهما عنه. .

" كان شأنك وحدك منذ البداية ، لكنك تخليت عنه وتركت كل شيء وراءك غير آبه بالنتيجة ، ولو لم يكن وجودي صدفة عرضية لظلوا يتألمون ، ولظللت انت غائباً لا مكان لك من الاعراب في اي مكان الا خارج نص الحياة ، اريد فقط ان اذكرك اني حينما تركت كل شيء ليس لا يليق بي. لكن لأن البعض هناك لا يليق بهم ان يكونوا فيه ، تركتُ إثم ذاك الزيف لهم وحدهم ، تركته لاني آثرت على نفسي ان اكون انسان ، الا تموت بي المشاعر ، ان اشارك الآخرين مواجعهم واواسيهم ، لا أن اجعلها هدفا قاصرا على ملئ جيبي بسعادة المال وحسب ، تركته لكي اشعر بمن هم مثل عائلتك يا رشاد ، لم يشعر بهم احد ..حتى ذاك الذي كان من فلذة كبدهم !

سأذهب لا تقلق ، على الاقل استطيع ان امضي وانا مرتاح البال تماما ، دع اختك تركب معك واوصلها الى المنزل ، واعدك الا تراني مجددا. .

مسحت سمية دموعها تكمل الكلام

" لا اريد ، لن أنزل ، سأدعه يوصلني الى المشفى كما كنا ، لم اكمل عملي هناك بعد ، واعتقد انني تاخرتُ بما فيه الكفاية ، حين انتهي سأعود للمنزل ..

" ماذا !! ماذا تقولين يا سمية ، انا اخوك وهو غريب ، تختارين الغريب عليّ ، هذا مجرد سائق لا آمنه عليكِ ، سأوصلك الى المشفى وانتظرك ثم نعود مـ...

" لا ، ساعود معه ، لو اردتَ ان تسبقني الى المنزل فافعل ، اعتقد ان انتظار امك اربع سنوات يكفي ، تابع كذباتك بأي كذبة اخرى تكمل بها عقد سقوطك من نظري ، المهم ان تُسعد قلبها ، يكفي الى هذا الحد ، هيا يا سيد قيس ، تأخرنا ..

نظر اليها رشاد باستغراب، ركب قيس السيارة وهو صامت تماما، كأنه يعود من جديد ذاك السائق التابع المطيع، دون ان يُبدي اي اعتراض او استياء..

تحرك من الممر الترابي نحو الطريق، رشاد ظل متسمر في مكانه يلعن بداخله قيس، يفكر فيما يمكن له ان يفعله، قرر ان الاستسلام الآن افضل، فلا شيء قد بقي لكي يحافظ عليه اكثر!

طوال الطريق وقيس يحادث نفسه في صمت، يقلب الافكار، حائر بين ان يناقشها او يتركها، ربما من الأفضل أن يكون آخر لقاءساكناً حتى لا يتهاوى مع كلمة ما ..

كانت تمسح دموعها ، أمسكت بالمرآة لتقوم بتعديل الكحل من تحت غطائها

بادرت بقولها " طبيب؟! حقا!

" ها، ههه نعم انا خريج كلية طب الاسنان من هذه المدينة، لكن عدم توافقي مع فكرة الماديات فيها ولانها تخلو من الرأفة بالمريض هو ما جعلني اتركها

" الاطباء جشعون!

" بل اصبحوا كذلك حينما استغلوا جهل المرضى، لم تكن يوما تجارة، ولا نجارة، ولا عمارة تبنيها في فم احدهم وتنتظر المقابل وحسب. انه انسان اشاركه في محاولة الحياة على اكمل وجه.. لا اكثر!

" من الأفضل أن تحتفظ بهذا الكلام لك ، صورة الطبيب يجب ان تكون ناصعة دوماً

" ... نعم، .. دكتورة انا اسف حقا لما بدر مني من سوء، ارجو السموحة

" انت ربما فعلت ما يمليه عليك ضميرك.. ضميرك الذي سيوقعك في الكثير من المشاكل ما دام من حولك لا يتفاعلون معه ويقاتلون بقاءه حياً

" نعم، اعلم هذا. . لكن هي حياة واحدة لا اكثر، على الاقل اقضيها وانا راضٍ عن ذاتي، لا اسوأ من ان نتعنّى من اجل ارضاء الاخرين، فنخسر انفسنا، ولا نربح رضاهم ..

رفعتْ زجاج النافذة قليلا " أتعلم، كنتُ اطمح لاكمال دراستي بهندسة الديكور، لم اكمل بهذا المجال الا من أجل اخي الذي اصرّ على ان اكون في مكانة مرموقة، قال لي بأنها كلها هندسة، الاماكن وحدها تختلف والطريقة، لم اقتنع، لكني اكملت من اجله، من اجل الا يخيب امله ولا امل امي بي، اما لو كان على ارضاء ذاتي، فانّي لا اريد هذا التخصص، ليس لانيي لا احبه، وليس لانني اقل منه، لكن ان نعيش ونحن نسير في طريق لا نختاره مهما كان يسيرا ، اصعب من ان نمضي بطريق اخترناه مهما بدا صعبا، اخي كان مثلا لي، قدوة، كنتُ اصبر نفسي كل ليلة به، اتخيل لو اني احادثه، اخبره بما تؤول اليه اموري كل يوم، كنت اشعر انه يربت على كتفي ويواسيني، علمت الان انه كان وهم، تلك الشخصية كانت بخيالي وحسب، اما الواقع فهو متنصل منها ، بعض الاشخاص في حياتنا هم من وحي دواخلنا ، نراهم بقلبنا لا عقولنا ، نرسمهم على أشكالنا ، على ملامح البراءة فينا ، ونصدقهم ، نحن نعامل حينها مرآتنا ، ولا نعي أن الحقيقة زجاج مكسور ، وشظايا انسان أبعدما يكون عمن نراه ..

" ربما حاول ان يسعدكم لكن على طريقته، هو شعر بسوء تلك النظرة التي قد يراها في اعينكم وهو عاطل لا حول له ولا قوة، قرر ان يتفادى تلك الطعنات ويبتعد، لكن

ابتعاده لم يزده الا ضياعا، فهو لم يحقق اي شي سوى خيبة تعتلي قلوبكم، تمنيت لو انه قد فعل ما يسعدكم، لكن اظن. . يكفي انه بخير

"...صحيح، ، ، يكفي. . انه بخير

" اعتذر منكِ عن هذا السؤال، لكن ما الذي دفعك لتثقي بي. . اعلم انك كنت خائفة وتشكين في صدقي، ما الذي دفعك لتغيري رأيك ؟

" تُرى، لو كنت وقتها قد ذهبتُ الى المشفى ووجدت مريضا يحتاج لاسعاف طارئ على طريق ما، هل كان لي ان ارفض بحجة الوجل ؟!، طبعا لا، فانا لم اوجد هنا إلا لأقوم بما تمليه عليّ مهنتي بعيدا عن العاطفة او الشكوك، هنا نحن لا نحتمل خيارات الظنون، يجب ان نقطع الشك باليقين، اما ان نتحرك خطوة للامام او نتوقف، تخيلته شخصا غريبا ويحتاج لمساعدة، هه، حتى لو كان قد اصابني شيئ حينها ان كنتَ كاذبا، فانا لن اشعر اني قصرت في اسداء العون لأحد. ثم لم يكن حينها اي مجال للتفكير الكثير ..

صمتا تماما حتى وصلا الى المشفى، اكملت عملها هناك طوال الليل ثم اتصلت به حين العودة. . كانتْ السابعة صباحا بعد يوم طويل من الاحداث، ومناوبة مسائية تعوض تأخيرها الغير مبرر من وجهة نظر أي احد

" عملكم مرهق، لا يشبه طب الاسنان، نحن في راحة!

كانتْ شاردة ولم تسمعه، فقرر الصمت تماما حتى لا يقطع سيل تفكيرها بما ينتظرها في البيت، حين وصلتْ قامتْ بادخال يدها في حقيبتها ، فتذكرت محفظته وهاتفه

" كنتُ قد اعطيتك هاتفك ، أليس كذلك !

" آه نعم ، جيد انك ذكرتيني والا كنت قد وقعتُ في مشكلة عند اي نقطة مرور ، أظن ان محفظتي لديكِ

" ...نعم ، وضعتها على المسند كما اخذتها منه ، ومعها بعض المال من فئة العشرات

" وهذا هو حسابك ، واشكرك ايضا على ثقتك في اعطائي محفظتك وهاتفك ، اعتقد ان ذلك يدل على شيء ايجابي داخلك ، تُحسد عليه حقاً

" انا ايضا كنت طبيبا يوما ما ، وادرك ان الارواح غالية

" يوما ما ! ! ، وما زلت على ما اظن .

" ... حساب هذا المشوار اعتبريه مدفوعاً مسبقا. .رغم انه اطول مسافة اقطعها على الاطلاق ، لكن لكونها مختلفة وفارقة في أمور كثيرة أُفضل ان تكون بلا حساب

" ممم حسنا ، كما تريد ، شكرا لك دكتور

" بل قيس فـ .قـ..ط !!

^ ^ ^ ^ ^ ^ ^

ماذا ان ؟

ماذا ان نازعتنا احلامنا ، أُنتزعت منا الى غير رجعة ، إن ترقبنا حدوث شيء ولم يحدث ، ان صادفنا خيباتنا على مفترق طريق ، أُجبرنا على مصافحتها ، ضمّها ، او حتى تنفسها في كل خلية منا كأنها لم تكن يوما حكاية وجع ؟!

ماذا لو أن الطريق نحو منزلي لم يكن ابيض واسود كما الطريق ، ماذا لو كان احمر واخضر، احمر بلون الدم، واخضر بلون خضار الارض، لكي اقطعه يلزمني ان ادفع من قلبي دمه، ومن ارضي منبتها ؟!

ماذا ان كنتُ طائرا، شجرة، غصناً، او حتى ورقة يابسة على ارض الخريف، من كان له حق ان يدهسني دون ان يشعر ؟!، واي هبة نسيم تلك التي تنال شرف بعثرتي ؟!

ما كان حجم الشعور في كل حالة منها ؟، هل كنت سأشعر بوجع انسانيتي، ام وجع الجمود بي!، ما كنت لأشعر بنفسي حينها وانا على وشك الفناء، فكيف انتظر من العابرين الاكتراث. ..!

احيانا. . ليتني غصن من شجرة، اكبر فرحاته تغريدة طير او رقصة مطر، وأسوأ مأساة له أن يفارق اوراق حياته كل خريف ، رغم انه يدرك ان الربيع سيلد الاجمل. .!، هو لا يكترث، لكنه يتألم بشكل ما، فينكسر. .. من يشعر بمعاناته تلك؟!، لا أحد

.. احيانا. ليتني لا أحد !

ما المؤلم اكثر. . ان افتقدك ولا اجدك، ، واعلم انهما من رجوع. . او ان تعود، وأراك، لكن لا حيلة لي في الوصول إليك ، وكأنك لم تأتِ؟!

نصف الالم ان ندرك ان حياتنا لا تتوقف على أحد، لا تقف، لا تُعطي اي مهلة لكي يُغير رأيه، ومع ذلك فهي تسير بدونه عرجاء، تُكمل عجزها بظله القابع في كل حكاية، في الحكايات السامرة التي يكون احد اطرافها كل مرة ولا تعنيه في شيء ! في الحرف الذي يسكن كل قصيدة ولا يقصده، في القصد الذي يحيد عنه فيعود اليه وكأنه روما الحياة!

لو ان حياتنا متوازي اضلاع لربما التقينا رغما عن ارادة الفراق، لتجمعنا في زاوية من حكاية، في ركن من صدفة، في تقاطع تتعامد عنده منتصف الحنين. . فنلتقي، لكنها كروية ضائعة، الكل يبحث عن الكل، والجميع يجري وراء الجميع، لا انت تطال من تحب، ولا هو يجد من يبحث عنه ، كل يوم تيه نحو التيه !

ما كانت عينا امي تتكلم كثيرا، حتى عيناها كانت لأول مرة صامتة ومصمتة، وجلة من النبش خلف التفاصيل، قلب الام لا يخطيْ، وكذلك عقلها، لكنها تعلم ان ايقافهما عن الاحساس شيء لا بد من تحقيقه احيانا، فالواقع اقسى من ان يُصدّق، او يَصدُق، كانت تضم أخي بشده، تتحسسه، تحاول ان تشعر بكل جاورحها انه عاد، بكت كثيرا وكثيرا وكثيرا، ما كنت اعلم ان كانت تبكي لحقيقة قالها لها قلبها، ام لفرحة ترتسم امام عينيها اياً كان ما يختبئ خلفها، كانت تواري أملاً ما بسعادة اليقين ، تلك الانكسارت التي يجبرها ربها لدعوة او سجدة لم تخب ، ربما لهذا كانت فرحة !

اما رشاد، فلم ينبس ببنت شفة، لم يعلق، لم يحكي شيئا، ولم يبشرح، حتى هو كان يبكي كما الأطفال ، رشاد يبكي امامي لاول مرة، ولم ادرك أن له أن يبكي حقاً، قلبه ربما كان يؤلمه، او ان ضميره يحاول مشاركة امي مشاعرها، فساقت الدموع مجراها كما لن تفعل قبلاً ..

وانا، أنا التي تبكي إن مرّ طيف الذكرى.. لم يكن لي أن أفعل حينها ، يبدو اني استنفدت كل الدموع، كل الوجع، حتى كل الشعور، اراقبهما بصمت، اضم اصابع يدي واباعدها، اشرد قليلا، واعود لاجدهما كما هما...يبكيان وأنا أراقب !

ي الله يا امي ، الله لم يُخيبكِ ، لم يرد يديك حين رجته بأن يرد لكِ ابنك سالماً ، ان تلقيه مرة اخرى قبل ان يحين فراق لا لقاء بعده ، ولم يردّك ، ولم يُهملك وسؤالك وإن طال موعد الجواب ، أما انا . . فخيبتي كبيرة ، ، وتكبر ، لم أُدعُ الله كما فعلتِ ، لم ارفع يدي ابتهل الرجوع ، لم ارفع يدي ارجوه ان يجبر كسري ، لذلك لأول مرة اشعرر بوجع ذلك الكسر ، كأنني ما ادركت الفراق واللقاء الا الآن ، حين لم أجد من يمسح دمعتي ويربت على كتف وجعي ، ليتني دعوت ، ربما كنتُ الآن بخير !

ما اقسى ان تُعلق آمالك بانسان ، وان تتعلق معه ، فيهوي من عينيك فجأة ، وتجد نفسك في قعر الوادي قربه حرجك منه ، لا هوالذي انتشلك ، ولا انت قادر على الفكاك ، بعض الخيبات فينا لا تسقط بهم وحدهم ، بل تسقط بنا ايضا ، بعض الخيبات تأتي على صورهم ، لنجد ان الجاني نحن ، والمجني عليه ايضا ، وان الصورة كانت نحن !

اما قيس ، قيس الذي كانت آخر مرة أراه او اسمع عنه يومها ، حاولتُ في عده مرات الاتصال به ، لكن هاتفه كان مغلقا تماما ، لم اكن ادرك ما حل به ، ولا اعلم ، كل ما كان بي اني اردت ان اعتذر ، وقع عليه سيف الجلاد ولم يكن في قضيتنا يوماً من شيء ، أردت ان ازيل عنه تلك القيود التي شعرت ان رشاد قد كبله بها ، هو أراد الحرية ، والكل قرر أسره خلف العادات لأنه اختار حريته قيده ! ، وكأن القيد مكتوب عليك أبد الآبدين ما دمت تؤمن بأن هناك حرية ، والحياة بعد حين تقول لك – لا حرية الا في الموت !

ربما شعر بحرج ، وربما بجرح ، وربما بان حجر الحياة صار أكبر من اللازم في دربه ، فقرر ان يتوقف عن دفعه او مقاومته ، ربما !

احيانا ، ان تختار الطرق الاصعب ، يعني انك تعرف ان الوصول للقمة يلزم أن تكون احد سلالمه هي النهاية حتى تكون لك بداية ما ، ربما كان يستعجل النهايات ، فقرر أن يبدأ نهايته حيث تنتهي البدايات ، حتى لا يفقد روح الانسان ، مهما بدا أنه مخطئ !

اتذكر بعد فترة من اخر مرة ان رشاد اتصل به من هاتف منزلنا ، اخذ يصرخ به ، كل كلمات رشاد كانت تنزع الكرامة كمن ينزع الجلد عن الذبيحة يوم العيد ، كان يتكلم بلا انقطاع بغضب ، كان يبدو ان قيس صامتا حينها ، وكأنه يحاول ان يكفّر عن خطئه بالسماح للآخرين ان يقتصوا من حقهم ، حتى لو على حساب كرامته ، فقط .. حتى لا يشعر انه ظالم ، وانه عاد الى رأس القمة الزائفة التي قرر حين جنون ان يقفز عنها حيث لا أحد يختار القفز !

رسالة الى ضائع ما ..

هنا تركتَ حقيبتك التي تعرف عنوانك ولا تعرفك ، فيه كل شي منك لكنها لم تترك فيك اي شيء منها ، يقول المسؤولون انك اضعتها ، ولا يعلمون ان ضياع بعض امتعتنا منا هي من تتسبب به ، حين تحمل كل شيء الا ما نريد حقا حمله ، تُثقل كاهل الدروب ، ولا نجني منها الا التعب اكثر ، والفقد اكثر ، او لتيه اكثر واكثر ..

حين تحمل حقيبة ما ، أودعها الفراغ ، لا تحمل من سابقك الى مستقبلك شيء ، فانه أحرى أن يُؤدم بينك وبين النسيان !

يتبع ، ،

https://www.facebook.com/lam3at.zomorod
https://twitter.com/lam3atzomorod

مدينة القشور ، تلك التي نعيش فوقها ، فوق وهمها ، ولا ندرك أي شيء تحتها ، هكذا ارادوا لنا ، ان نكون على حافة كل حكاية ونحن نعتقد اننا في قلبها ! ، هذا ما أشعر به الآن. . لا ، هذا ما أشعر به كل دائماً ، منذ صغري وأنا لا يحق لي أن أسال عن المحظور ، لا اجابة. . ، حتى عشت لا أبحث الا عنه ! ، ان تتذكر في لحظة ما أنك خارج كل شيء بفاصلة ، فاصلة تفصل اسمك عن اسمهم ، يومك عن يومهم ، حتى عندما يتكلمون ، تكون الفاصلة في كلامهم سكون صغير يعقبه اسمك ، لتكون الاستثناء الوحيد دائما. .

أحيانا. .. يضيق بي صدري ، أحاول أن اعرف لمَ انا هنا ، لمَ أنا على هذا المقعد وليس الذي يجاوره ، لمَ أكتب بيدي اليمنى ويدي اليسري يرهقها جسدي بثقله وانا أستند عليها ، لما اصطفيت الأخرى بحق التعبير وسجنتُ تلك ، لماذا لمْ أكتب برجلي مثلا واترك ليدي مهمة السير بي نحو ما أرنو ! ..

لماذا سمتني امي باسمي هذا ، أين رأته ! ...(قيس) ، قاف ، ياء ، سين ، من عساه قتل ابن الملو حقاً .. حبه... أم اسمه ! ، لماذا لم يكن لي اسمٌ آخر ، او لماذا لم تتركني بلا اسم ، على الأقل أدرك لوني الحقيقي ، على الاقل اختار لأول مرة أي شيء ، لكنّ أمثالي دوماً قدرهم أن يكونوا الخيار ، ليس لهم حق الاختيار ، فان اختار فقد قرر الانتحار !

من المذهل أن اسناننا لا تنمو كأظافرنا ، يُخيل اليك أن كل عدو لك هو فريسة تنهشها كلما اصطدمت معها ، ستغدو لنفسك أضحوكة وانت تغضب كل مرة ، تقضم من نفسك شيئا ، في الواقع .. نفعل هذا غالبا نتكلم وتتولى الاسنان مهمة نسج الطعنات على شاكلة صوت وحرف ، لكن بلا أكل ولا قضم ، سهام أسرع من الصوت ، أشد من الموت ، الجروح لا بد لها أن تطيب ، لكن طعنات الكلام ما من دواء لها ، تبقى عميقة أسفل كل ابتسامة كاذبة ، كل حنين وكل ليل تغشاه الوحدة !

كان لرشاد أن يجرحني ، ربما أسأت وربما كان له ان يغضب ، لكن تلك الكلمات التي تُدفن بين السطور هي من تثأر منا ، لنتحول من جاني لضحية ، أخالني من داخلي أنزف ، كل عضو بي يشكو أمره لجواره ، فيواسيه بجرحه الاعمق هو الآخر ..

إضربْني ، إكسر لي يدي ، رجلي ان شئت ، او حتى افقأ عيني ! ، لكن لا تدع لكلماتك حق فعل ذلك كل يوم ، تُورثني صوتها لتبقى كل سكون تلكمني وتصفعني وتشي بي لليأس ، " وحدهم من لا عزاء لهم يحاولون أن يجعلوا لأنفسهم عزاء عند الآخرين ، وانت عزاؤك الوحيد انك انسان ، جالب للشفقة ، مثير للأسئلة ، ومملّ ، لتعرف انك لم تعد بلا قيمة اذهب الى ابعد مكان تصله قدماك ، وكن فيه لفترة حيث

لا أحد سوى وحدتك ، ان وجدتَ من يبحث عنك فانت محظوظ ، لأنك تركت كل شيء بغبائك يستحق أن تُرفع من أجله السماعة ليَطمئن أحدهم على حالك ! "

تلك سهام رشاد الانيقة على شكل مكالمة أخيرة ، كنت اسمعه ، اسمع نبرة غضبه ، صوته الذي يُشاجر حنجرته ، أعدُ السيوف التي ثقبت قلبه لجعلته واهيا خاويا ، ككيس توسدته الرياح فبات له صفير بين الشجر ، تخال انك على وشك محاربة سبع ، لكنه وهن الخبايا وحده من يجعل منا أصوات كاذبة مهما علت ، مخيفة ، لكن لا صدى لها !

يحق لي ذات مرة أن افعل ما قال ، ليس لأجل أن أثبت أنه على صواب ، لكن لأتأكد انني كنتُ على خطأ ..كان لا بد لي أن أصبح من أولئك الذين لا يعرفون الا اسماء ماركات هب أغلى ما فيهم ، اؤلئك الذين يصنعون الوهم لك ليأكلوا به حقيقتك ، ملابسهم راقية ، مظهرهم راقي ، وخداعهم كذلك ! ، سيموتُ الضمير وسينساني ، الضمير لا يعيش طويلاً في مكان يضنيه جوعاً ، برودا ولا مبالاة ، لا بد له يوماً أن يعتاد الزيف والكذب والبسمة الحاذقة السرمدية ..

أحاول صنع أمنية لهذا الصباح ، كل الأماني التي صنعتها كانت تتكسّر قبل أن تصل الى فجرها ، هذه المرة سأحاول صنع أمنية لتتكسّر لأجل هذا الصباح بالذات ، انا اريدها أن تفعل ! ، لتكن هذه المرة الخيبة مصدر سعادة ، الدمعة مدعاة للضحك ، الخطأ هو الصواب الوحيد ، الوحدة هي الحل المثالي لتكون مشهور .. ! ، كل المعاني مقلوبة ، الاسماء تُقرأ بالعكس لتبدو واقعية أكثر ، دعني أسير نحو الخلف بسرعة ، أهوي لأعلى ، كل يوم اتقدم نحو الامس مسافة عمر ، وأجن أكثر لابدو بكامل عقلي ، انها الحياة بمنطقها المعاكس ، تأتي عليك اللحظة التي تختل بها بفكرك وانت تائه بين صوابك

والخطأ ، بين العيب والواجب ، بين المأمور به والمحظور ، بين رضاك أنت او رضاهم هم ، بين الحقيقة والوهم !

حزني الذي أضعه في مأمن عن الآخرين والذي لا أسمح لأحد بالاقتراب منه يتجرأ علي ، كل فتات التفاصيل الصغيرة التي كنتُ أرميها للبحر هاهنا ها هي تعود لي بكل رسائلها ، حتى البحر لا بد له يوماً أن يُثقل بنا. الصدى ، أطول عمرًا من الكلمات ..، والألم أعمق بكثير من سطحية اللكمات ، أنا هش أكثر مما يبدو ، هش للحد الذي قد يدفعني لتغيير اسمي الى فراشة ، تسأل شمعة تحوم حولها : أين نسينا الحياة ؟! فتحرقها الدموع !، هش الى الحد الي يدفعني الى أن ابتهل الى الله أن اعود صغيرا ، بلا اماني ، بلا احلام ، بلا شيء الا كرة على الطريق ألعبها ، ونوم أبحث عنه حين التعب .. موجوع الى الحد الذي يدفعني الى مواصلة السير لأتعب أكثر ، فيأخذني النوم نحو رصيف مجهول ، أستيقظ لأجدني بدور صبي حائر في الطرقات ، لا يعرف اسمه ، لكنه يصنعه بملامح كل يومٍ وشما على صدره .. يا للوهن !

ضعيف .. لكن طوبى لقلبي ؛ إنه قوي جدًا، يحمل حزني وحزنك، وحزن آخر أيضًا لايهمّه، دون أن يمتلىء أو يتشقّق ، لكن هذاالجسد مرهق جدا بسببه ، مثقل كاهله بحقائب لا يعرفها ، عناوين لن يصل اليها ، وأخشى أن يقرر بسببه الاعتزال !

... شكراً للصباح والبحر ، انه يجعلني كل مرة أتظاهر بالسعادة ، وأعرف مجدداً أنني سأعود الى هنا .. لأنني في نوع ما من الحزن ، لأني ما زلت أتظاهر !

صباح أدرك فيه لأول مرة ان الفراغ ليس الخواء وحسب

فاحيانا هو الامتلاء بكل شيء حد عدم الاستيعاب. ..حد لحظة تتوقف فيها عن تقبل

المزيد!.. .

أن تعيش سعيا من اجل كل شيء فتكتشف في النهاية انك لم تكسب شيئا من جريك سوى التعب.. .

سوى النوم وانت بكامل الارهاق... لتستيقظ من أجل ان تكمل سباقك الأزلي!..

صباح الشمس / تلك التي اعتزلتنا هذا اليوم لنراها من خلف المطر.. .

خلف الحكايات القديمة التي نشتمها في هطول غيث قد هَجَرناه بجفاء منذ زمن ، لربما نشتاق لصوته ودموعنا تحته ودعوات قد خبأناها لأحدهم !

كالطفل أبحث عن أمي ولا أجدها ، وآه يا لو تدركين اننا كنا نرسم أحلامنا على الطاولات ونحن صغار لأنهم لم يسمحوا لنا بأن نرسمها في دفاترنا !

كنا نملأ الجدران حكايات لأنهم اقتصّوها من ألستنا حين تمنينا قولها

وكنا كثييرا. .كثيرا ي أمي. .ما نُقاسم الدمى اسرارنا حين عاقبونا على افشائها. .وحدها كانت تُجيبنا حين نسأل ولا يجيب أحد ، وحدها كانت تحبنا .. حين كرهنا كل أحد

نحن ي أمي ما كنا الا حكاية كاملة وبنهجها مستقيمة.. .

حين سرقتم منا براءة طفولتنا والحرية بين عبث الكبار بُترت حروفها ونقُص جمالها!. .

انتم من رسمتمونا بايديكم. .فلا تلومونا ان صرنا مشوهين !

- رسالة من الحياة .. بلا نص ، بلا صوت ، بلا صورة !

ستثبت لك الايام ان من يرحلون ونتألم لهم كانوا الاقرب!.. .

ذلك اننا لا نأبه لرحيل الغرباء..

ولا لملامح العابرين يومياً في رحلات المغادرة..

لا نأبه الا لمن اعتقدنا لحين انهم الاوفياء!

ستثبت لك الايام

ان الوجع الشديد لا يعني ان بعده انكسار..

وليس اسوداد الحياة في أعيننا لبرهة يعني قرار الانتحار!..

لكنه يُؤكد حقيقة اننا سنعتاد الألم..

ستحمل الايام اوجاع مماثلة..

لكنها ستغدو باهته وغير مجدية.. .

لتُصبح بدل الدمعة ضحكة ساخرة..

..نصف الضحكة جرح ملتئم !

ستثبت لك الحياة

انك ان زهدت فيها ركضت نحوك..

ولن تنالها أبداً ان ركضت خلفها ..ستتعثر في سراب احلامك.. وستفوتك!

يتبع ، ، ٍ

#

هكذا أحيانا ، حين تهرب من نفسك لتجدك أمامك ، تبحث عن بديل ليكون هو ذاته الشيء الذي رفضته ..ابتسم ، فالارض دائرية ، وكذلك رأسك !

لذات السبب سافر بعيدا حتى يهرب من كل شيء، كل احد، حتى لا يواجه في عيون الناس النقد، وحتى يُرتب اوراقه كيفما شاء.، اعتقدت امه انه قد يكرر ما فعله رشاد بأهله بعد ان علمتْ بما حدث معه ، كانت أمه تشبهه ، او بالاحرى هو من كان يشبهها ، لم تقف بدربه ، لم تصرخ بوجهه ، لم تملك الا ان تربت على كتفه وتهمس له : اينما كنت يا بني لتكن مع ربك ..فلن يخذلك ابدا ، لن امنعك من شيء ، فهي حياتك ، ولك حق ان تختار الطريق الذي يحلو لك ، قربنا او بعيداً عنا ، لكن .. في رحلتك للبحث عن ذاتك لا تُسقطنا منك ، فنحن أيضاً نحتاجك .

بعد فترة ليست بقليلة شعر قيس أنه وصل الى ما أراد ، او ما يجعله ينام مرتاحاً كل ليلة دون أرق ، كان قد اختار حلا وسطا يُريح ضميره ويرقى بانسانيته ، عاد حاملاً لدكتوراه في مجال تقويم الاسنان والفكين بعد سنين من الغياب ، لم يتوقع أحد ان يفعل .. ولا هو ، خاف من كثرة ما أصابته الحياة برائحة الهزيمة ، ولكثرة ما سقطت منه وارتطم بها ، ترك السيرعكس التيار ليسير معه ، وربما يُسابقه ، هرب من هذا الطريق لمرات كثيرة ، ولكنه كل مرة يكتشف متأخراً أنه مازال يركض فيه ، وجد نفسه حاضراً ملء الغياب. وكلّما فتّش عن نفسه وجد الآخرين ، وكلّما فتّش عنهم ، لم يجد فيهم سوى نفسه الغريبة ، مثل عصفور ينقر نقرة واحدة ويطير.. هكذا كان يريد حياته ، لكنها كانت أطول ، قرر ان يكون كذات الطائر ، لكن بدل النقر يضع وردة امل لأحدهم كل يوم في معبر حياته..

بعد كل هذا الصراع عاد ، عاد لكي يخبركم قصته هنا أيها الحضور الكرام ، عاد ليجد ابطال قصته بينكم ، وهذا ما دفعه ليُغير كلماته وموضوعه تماماً ، ليسرد قصته غير آبه بما قد سطرأ في ذهنكم حينها ، غيّرتُ اسماءهم بأخرى استعرتها من غلاف مجلة قد رأيتها بالصدفة ، أر دت أن أوصل رسالة ما

من أنا ؟! أنا قيس ليلى ، وليلاي لم تكن الا ضميري الذي قررت الا ابيعه ، ولا أن أجعله قابلا للإيجار حتى لفكرة ما ، بكم أشتري طريقاً لي وحدي ؟ لا يُنازعني في احلامي احد ، لا يسد دربي أحد ، ولا ينهرني احد لمجرد أني عبرت من أمامه ، أني شاركته طريقه !

كنتُ قد وقفت هنا كي أشرح لكم ميزات التقويم وفوائده للبالغين، وكيف ان اثره لا يقتصر على الشكل والوظيفة فهو مصدر راحة نفسية يراها الشخص في عينيه كلما قابل المرآة ، وفي عيون الآخرين ..

قد يختار المريض ان يبقى بما هو عليه لانه لا يرضى ان يتبدل او يتغير من اجل أحد، قد يضر نفسه. نفسيته، وكل ذلك تمسكاً بماضيه مهما كان البديل افضل، يرفض التألم للحظات ويختار ألماً داخله لا يلتئم

سواءً كنتُ على صواب ام لا، كنتُ أحمل ضميري على كفي وأخشى عليه كطفل مريض من كل أذى ،هربت به عن العالم وخبئته ولم أسمح له أن يراقب حتى مكانه من بعيد ، نسيت ان الهروب هو اساءة اخرى، نسيت ان الطرق قد تطوينا وتحمل من ذكرياتنا لكنها تنسانا، هي لا تنتمي لأحد مهما بدا انها عالقة بكل خليه منا ، بعت مكانة الطبيب ، حتى أنا كنت أحد السيئين الذين رفضت أن اكون منهم ، كنتُ أشبههم ..

ما احببت ان اتكلم بكلام معقد عن دراستي بالخارج وكفاحي لطلب العلم - خلافاً لما يحدث دائما هنا كل عام - ، لان اصعب الكفاح ان تواجه نفسك وتحرضها على اكمال ما اقسمت ألا تقربه. ان تعود لذات النقطة التي توقفت عندها عندما تدرك انك المخطىء في وضع مكانها على سطور حياتك ..، ما احببت ايضا ان اسرد عليكم كلاما مدوناً في الكتب وفي المراجع، وربما سمعتموه من غيري آلاف المرات قبلاً ، كل ما

تعلمناه كان يدور حول انسانيتنا ، أن أبحث عن حق الانسان وحقه في الحياة قبل اسمه ونسبه ، كل ذلك صار في حياتنا ماضياص على ورق ، فالاسم أهم ، والمال أهم ، والمكانة المرموقة الزائفة أهم واهم ،وعلى الانسانية السلام ..!

حين علمت ان الهروب مصيبة أخرى ، قررتُ ان اعود لحلم الطفل بي من جديد ، وأدركتُ متأخراً جدا الحقيقة ، لا تبع احلامك لانها لم تأتِ على مقاسك، غير مقاسها لتناسبك، ليس المهم ان تحصل على ما اردت او لا ، المهم ألا تجعل أحجار الحياة وعقباتها تدفنك قبل أن تصل للنور بخطوه !.

في الغربة .. كنت استخرج من ذاكرتي شخصا قديما، أكتب إليه، أكتب عنه، أكذب على لسانه، أصنع منه صديقا، أختلف معه، أمحوه في النهاية وينتهي من أرشيف حياتي. حتى اذا ما قابلته من جديد لا أحدثه عن أيامي السيئة، أبحث عن اللحظات الجميلة في ذاكرتي – التي بقيت - وأحكيها له ، قد يفرح بماضيك. وقد يحسدك ، المهم أنك لم تعد تتألم منه . لا تحاكم وجودك في الحياة بكل هذه القسوة، تذكر أنك تخوض هذه التجربة أول مرة . و لا تسخر من أحلامك الصغيرة، هي كانت تُناسب عمرك وحاجتك. أبتسم لها، ولا تخبر بها أحد.

لا غرابة في أن تكون مصابا بصداع في لحظة ما، الغريب أن تظن أن الجميع يتعامل معك وهو يعاني من نفس الحالة: الصداع أيضًا ، فنلعن الجميع ونظلم الجميع والعيب فينا ...

لا شيء اضافيّ اخبركم به وانا ارى الاستفهامات على وجوهكم ترتطم بوجهي ، مثلي مثلكم ؛ الحكايات الناقصة تثير جنوني ، تستفز التخمين في عقلي ، تحرض خيالي على إكمالها حسب مزاجي ، في حالات كثيرة أُحيل الأبطال إلى الموت كحل عاجز وبسيط ، لا بأس أعتبروني واحدً منكم شذ عن دروبكم المرسومة من البداية ليرسم دربه بنفسه ، يعيشه بطريقته ، يضيع فيه ، يعود له من جديد ، وبالنهاية يأتي ليحكيه لكم في المكان الغير مناسب ، لكنه للأشخاص المناسبين !

قبل ان أنزل من هنا وأترككم تكملون ما بدأتم به .. لدي كلمة صغيرة لأحدهم هنا ..

الى الغريب الذي جمعتني به الأقدار صدفة فغير وغيرتُ حياته وحياة الكثيرين حوله ، و الذي طلب مني الا يراني مجددا ووعدته بذلك ، آسف لك ي صاحبي كثيراً كثيراً ، لكن كروية الأرض تُحتم علينا أحيانا أن نلتقي بمن لا نريد ، اكملتُ طريقي الذي تركت ليس لانك على صواب ، بل لاني عرفت كيف اكون انسانا دون أن أدوس حلمي تحت عجلات الطريق ، فالفقراء من الحلم ، المتوقفون عن التمني ، الغارقون في الاستسلام لحظوظ الأيام القليلة ، المهيئون لاستقبال هبات القدر ، وحسبْ.. يبعثون على المَلّل . لذلك ؛ دكتور بالجامعة وطلبةٌ كُثر تحت يديه يرسم لهم بدايات طريقهم كان حلاً مثاليا لي ، الآن لن اشترى وجع أحد لأبني به حياتي ، ولن أضطر لأدفن دموعي برمال التبلد حتى لا أواسي أحداً وأكون كما قالت المراجع في آخر صفحة منها ، يكفيني دور أن أبقى أذكر طلابي بانسانيتهم قبل مرتبتهم العلمية !

ليس بالضرورة أن أحبك، ليس بالضرورة أن تحبني، يكفي ألا أكرهك، يكفي أنك لا تكرهني، ما أجمل هذا الجهل وكأننا لم نلتقي. فان لم يَرق لكم كلامي فارموه جانيباً واكملوا ما بدأتم به ... شكراً لكم .

نزل من المنصة دون ان يلتفت خلفه ليرى ردة فعل الناس او تعليقهم عليه ، اختار ان يهرب للمرة الثانية، لكن هذه المرة حتى لا يفتح من اوراق الماضي شيئا ولا يواجه شيئا ينكئ بجرحه او يسمع اي اساءه اخرى، كان يكفي انه في نظر نفسه بخير

توجه نحو سيارته، رغم ما اصبح عليه الا انه لم يفرط بها، اعاد لها خصوصيتها وازال اسم (اجرة) من عليها، وجد ورقة صغيرة مثبتة على السيارة..

" سمية، اسم جميل تختاره ليكون لبطلة قصتك، كنتُ اعرف انك لن تغير سيارتك تلك ، لوحتك كانت رمز الوشاية بمكانها - أ س م ٣٩٨٦ - ، الصدفة التي جمعتنا مرتين قد تجمعنا ثالثة، ولا بأس ان تعمدناها أحياناً ، الى حينها أتمنى لك دروباً لا تتقاطع مع وجع ، ولا الم ..

اخرج من جيبه هاتفه وبحث عن رقمها. ..

كتب اليها رسالة قصيرة

" ان كنت تبحثين عن د.قيس فهي شخصية وهمية ارسمها على ملامحي لأناسب من حولي ، اما ان كنت تبحثين عن قيس فربما تجمع الطرقات اثنين صدفة ، ربما ..

قبلاً فكرتُ أن اكتب رسالة إليكِ ، لكن كثيرة هي الأشياء التي لم تحدث بعد ، لم تُقال ، ولم نفكر حتى بالاقتراب .. نخشى أن تنكسر ان اقتربنا او نتهشم نحن !

أدخل هاتفه في جيبه دون أن يرسلها ، عاد الى البحر حيث كان دائما ، قرأ رسالتها للمرة الاخيرة ، ثم مزقها ونثرها نحو البحر ، بلا زجاجات ولا طرود ، حتى لا تعود له يوماً ...

الحكايات لا تقف يوما على اشخاص ولا يموت الانسان فينا لمجرد حكاية

لكن. ...

لكل واحد منا حتى يعيش حقا

لا بد ان يبدأ حكاية ! !

النهاية تنسانا وننساها...

المهم ان نبدأ ...ان نصنع طريقا ونمشيه...

فلو كُنا تطلعنا بهامات رؤسنا نحو الموت

ما كنا ابدا لروض الحلم فينا ان نسقيه !

ابدأ.. ودعك من ماهية المُنتَظَر..

فالبدايات لك... والنهايات للقدر...!

وأما قبل ، ،

هذه القصة مبنية على واقع حولي وحولك ، يدور في فلكنا وندور في فلكه رغم خط الزمن الذي لا يجمعنا أبداً ، الفارق الوحيد انه ما من نهايات سعيدة ، في الواقع ما من نهايات لأي شيء ، فخلف كل نقطة تبتدي سطور جديدة، تتوالد وتتكاثر لتكون ألف قصة وقصة ، أغربها لم يكتبه أحد بعد ، ولن يقرأه أحد !

كل ما يتوقف عندنا يبدأ بغيرنا. ..

فنحن وحياتنا فصول من قصص ، وكل حكاية منا أقصوصة اخرى ، وحدنا عالم لا ينتهي ، لا يعرف نهاية وان بدا لنا أنه وضع قلمه ، وانسلّ خيط سمره ، لكن خلف كل مسرح مكتظ بالجمهور ، مُذهل بالأبطال. .كواليس مخفية ، لن ندركها أبدا ، حيث يقبع البطل الحقيقي !

ستظل دوما ذا دور في قصتك ، وكل يوم لك بطل. . قد انتهى من دوره بمكان آخر بالأمس ..

الحياة ، انا ، انت ، هم ، وبضع جمهور

دع التصفيق. .

فقط تأمل ، ابتسم ، وامض بسلام!

تـــمت

قلم : نورهان عزت (لمعة زمرد)

الجمعة

٢٠١٣/٤/١٩

١٤٣٤/٦/٩